رحال أبو الوفاء

سفر بدون عودة

حكايات وتأملات من نسج الواقع والنضال

أكتوبر 2020

منشورات "مجلة كراسات تربوية

سفر بدون عودة

حكايات وتأملات من نسج الواقع والنضال

منشورات مجلة كراسات تربوية

+212664906365

Majala.korasat@gmail.com

https://korasate.blogspot.com/

رقم الايداع القانوني :

ISBN : 978-9920-32-161-7

أكتوبر 2020

حقوق النشر محفوظة للمؤلف

الأستاذ رحال أبو الوفاء

المحامي بهيئة الرباط

cabinetmaitreabouelouafa@yahoo.fr

صورة الغلاف "زهرة الصحراء" من مرزوكة

تقديم

يمكن إدراج النص ضمن القصة القصيرة وذلك بالنظر لحجمها و لامتدادها على محور الزمن و لأحادية حدثها، وما يمنح النص انتماءه للجنس المذكور بنيته وفق خطاطة سردية تقليدية ذات اتجاه خطي مكونة من وضعية أولية و من توتر و عقدة و حل، علاوة على موقعة الشخوص في المكان والزمان واعتماد نموذج السارد العالم بما كان وما هو كائن وبما سيكون مما يؤهله للتحكم في حركات وسكنات وأحلام و استيهامات ومسارات الشخوص وفي لغتهم كما يجعله يلجم الزمن و يوجهه حسب إرادته وعلمه، كل هذه الإجراءات تضع حدودا للقراءة لا تقبل الاختراق بل ولا تسمح بركوب متن الاستباق، لكن بتجاوز هذه المميزات الأخيرة يمكن أن يكشف القارئ عن مواطن لذة النص التي قد تشده إليه شدا, تتمثل قوة الانجذاب إلى النص في إحالته على واقع بشتى مستوياته حيث يعكس العالم الريفي بشروطه التاريخية وبثقافته و أعرافه وقناعاته و الضوابط التي تحكم سلوكه و توجه انتظاراته وطموحاته، وقد شكل هذا الواقع بعلامات النسق العربي الفصيح دونما

إهمال لغة التداول لما للترميز بها من فعالية تواصلية ولما يصبح أمر الاستيعاض عن اللغة المعيارية مطلبا ملحا لملاءمة المبنى والمعنى للمقام، و يدعم المنحى الواقعي ارتكاز الأقصوصة على حدث فعلي موشوم في الذاكرة محدد في الزمان وفي المكان يمنحها قيمة التوثيق و الشهادة التاريخية، ولعل هذا الموضوع الذي هو ركن الزاوية قي العمل السردي يشكل في اعتقادنا أحد رهانات الكتابة بما هو لفت لنظر المتلقي للحيثيات الذاتية والموضوعية التي تتشابك في حرب الطرقات و دفعه على لسان أحد الشخوص إلى تغليب العقل و ترجيح الحياة سواء كانت حياة الذات أو حياة الآخر إبان مخاض اتخاذ القرار، لا تتوقف أدبية الأقصوصة على مقوماتها الواقعية فحسب بل أيضا على مقوماتها الخيالية التي تتناسل كلما خطا السرد قدما نحو التعقيد ثم نحو التفكيك، يتجلى التخييل بالأساس في الجنوح إلى توقيف الزمن الحاضر و إثارة ذاكرات متعددة أحالت على تاريخ الأمكنة بما فيها محطة من تاريخ المغرب و على مسارات ألأشخاص، يتجسد من جهة أخري في تجميع ركاب ذوي أصول و مهن واتجاهات و مقاصد متنوعة وفي توحيد اختياراتهم و ربط جسور التحاور بينهم و سبر أغوار ما يعتريهم من هواجس ومخاوف و إعطاء كل واحد منهم اسما ولقبا و توصيفه وتفريده من حيث معجمه اللغوي ومزاجه وطبعه، ويحضر الجانب التخييلي إلي جانب كل ما ذكر في تصوير الوضع الاجتماعي و الحياة الأسرية

لبعض الشخوص وفي ولوج بيوت بعضهم و اقتناص لحظات من حياتهم بها و التقاط بعض الأنشطة التي قاموا بها ليلة السفر (مشاهدة النشرة الجوية).

نعتبر هذا العمل خطوة كبيرة على درب الإبداع، يمتح قوته من جوهره أو شرارته الأولى الكامنة في الحادث المستوحى من الواقع، ويتميز بشفافية لغته و بسلاستها.

الأستاذ الأزهري الخدير

حرر بتطوان 28 فبراير 2014

تمهيد

الحوادث قضاء وقدر أسبابها متعددة، و الاحتياط واجب، خاصة و أن حوادث السير تحصد سنويا ما يفوق ثلاثة آلاف وتسعمائة قتيل، أي بمعدل عشرة ضحايا يوميا، الشيء الذي يتسبب في هدر أموال طائلة، كان من الممكن لو تم توفيرها أن توظف في الاستثمار.

و ما هذه القصة التي أسميتها سفر بدون عودة، إلا محاولة لإبراز ما تخلفه حوادث السير من مآسي في البيوت بصفة خاصة، وفي المجتمع بصفة عامة، و ما المجموعة التي استنطقتها في هذه القصة إلا نموذجا مصغرا لما تخلفه حوادث السير من أهوال، والتي نسعى جميعا من أجل التخفيف من أهوالها. و المؤكـد أن سبب حادثة (كريـــفلة) هو العامل البشري، شارك فيه الركاب والسائق الذي يتحمل كامل المسؤولية، نتيجة تهوره ورعونته وطمعه الزائد. ولا ننس الركاب الذين شجعوه على عبور القنطرة التي كانت تغمرها المياه عن آخرها، ولا تظهر أدنى معالمها، حتى يمكن أن يهتدي بها السائـق الذي غامر بحياة الركاب دون أن يفكر في العواقب التي ستنتج عن مغامرته، وقد كانت نتائجها وخيمة، وذهبت ضحيتها أرواح بريئة مخلفة وراءها أيتاما منهم: من شرد ومنهم من انقطع عن الدراسة لعدم وجود معيل، ومنهم من انضم إلى قافلة الأطفال المشردين

دون السن القانوني، كالخادمات بالبيــوت، أو صبيان لدى مختلف الحرفيين هذا زيادة على الأرامل اللواتي أصبحن بدون معيل، بين عشيــة وضحاها، بعــدما كانت أحوالهن العائلية مستقرة، وكــن يحلمن بتربية أبنائهن تربية صــالحة. و مــا أمثــال هذه الحــوادث التي تقع في الطرقات، ومنها حادثة (وادي كريفلة) في الطريق الرابطة بين الرباط – و وادي زم والتي خلفت عددا كبيرا من القتلى والجرحى والمفقودين، إلا مثال ونموذج مصغر للحوادث التي تقع يوميا والتي نسمع عنها أو نشاهدها في وسائل الإعلام المرئية أو المسموعة. وما محاولتي إبراز النتائج التي تخلفها حوادث السير، إلا مساهمة متواضعة في التوعية ودعوة إلى أخذ الحيطة والحذر من أجل تجنب هذه الكوارث، التي حاولنا جهد المستطاع إظهار بعض جوانبها و عواقبها، و بذلك نكون قد قمنا ببعض ما يفرضه علينا الواجب الوطني، كمهتمين بقضايا حوادث السير وما تخلفه من آثار سيئة على الأفراد والجماعات.

الجزء الأول

سفر بدون عودة

من وحي حادثة سير بوادي كريفلة

أولا : الاستعـداد لـلسفـر

في إحدى ليالي فصل الشتاء البارد كانت أمينة "الخبازة" تتأمل قطرات المطر تنزل متسارعة لتجري في الشوارع، مكونة جداول متدفقة، وكان المطر يغسل الأشجار من الأوساخ التي علقت بها خلال فصل الخريف. وقد استمتعت أمينة بالموسيقى المتناغمة لقطرات المطر المتسارعة، وهي تتساقط على زجاج نافذتها كأنها دموع طفل رضيع، مسه الجوع فسارع إلى إطلاق صياحه ليوقظ أمه، التي ستحمله كعادتها، وترضعه إحدى ثدييها فيصمت، ويشعر بالحنان والدفء.

استمرت هذه الأمطار طوال الليل تتساقط بدون انقطاع، ومن حين لآخر كان يسمع صوت الرعد القاصف كأنه مدافع تقصف العدو في إحدى الحروب.

كانت السماء مجللة بالغيوم، والأشجار تتراقص وتتمايل ذات اليمين وذات الشمال، ليس فرحا، وإنما من شدة الرياح العاصفة.

امتلأت الشوارع والأزقة بالمياه الجارية التي تساقطت دون انقطاع. في هذا الجو المضطرب من أيام الشتاء، خرجت أمينة "الخبازة" من بيتها قاصدة المحطة الطرقية، وهي امرأة في منتصف العمر رشيقة ممشوقة القوام، ترتدي ملابس نظيفة اقتنتها من الجوطية، كانت تلبس قميصا أبيضا، ومنصورية ملونة، لأنها تحب الملابس المزركشة، وتضع فوق كل هذا جلبابا نسويا سميكا يقيها من البرد

القارس، وتضع على رأسها سبنية مطرزة غير مكترثة بالأحوال الجوية. دفعت عربتها اليدوية الصغيرة المحملة بالخبز الذي أعدته لتبيعه في السوق الأسبوعي، وكادت عربتها أن تنفلت من يدها وتجرفها المياه فتضيع بضاعتها التي هي مصدر رزقها، وفي هذا الجو المضطرب، دقت باب منزل رفيقتها مباركة "العشابة"، وهي أرملة تجاوزت الخمسين من عمرها، ثخينة وتعاني من السمنة المفرطة، ترتدي ملابس يغلب عليها اللون الأحمر الذي تفضله على غيره من الألوان، وهي تصطحب دوما أمينة الخبازة في الأسواق الأسبوعية و لا ينحصر تخصصها في بيع الأعشاب بل يشمل أيضا التزيين إذ كانت تصنع "باروكات" للنساء الصحراويات من بقايا الشعر الذي تجمعه من مختلف الأماكن، وتغسله وتعطره وتصنع منه ظفائر غليظة تضعها النسوة فوق رؤوسهن وتشدها بمنديل أو سبنية مناسبة، وذلك في المناسبات والأعياد وهو ما يسمى بالأمازيغية "إبرطان" وبذلك تكون مباركة قد سجلت سبقها في مجال التزيين "والإستيتيك" بإنتاجها "لإبرطان"، التي تحملها إلى الأسواق الأسبوعية عبر حافلة وادي زم. كان لون الحافلة المشؤومة رماديا وعلى جانبيها خطين أحمرين وقد كتب في مقدمتها بخط عربي ولاتيني نقطة انطلاقها والخط الذي تربط به مكان وصولها أي وادي زم. كانت مقاعدها عادية اعتلاها القدم وكتب على بعضها أرقام باهتة لا عمل بها، لأن تذاكر السفر لا تحمل أرقام المقعد المخصص للمسافر، وقبل انطلاقها عمل مساعد السائق على تنظيفها وجمع بقايا النفايات التي تركها المسافرون في الممر الفاصل بين

صفوف المقاعد أو تحتها ، والتي كانت عبارة عن قشور البرتقال وبعض الأكياس البلاستيكية المملوءة ببقايا غلاف البسكويت المصنوع من الألمنيوم الرقيق وبعض الأكياس المحشوة عن آخرها بأشياء أخرى. أما جوانبها فمغطاة بالزجاج والتي كانت مغلقة لشدة البرد وهطول الأمطار، ورغم إغلاقها فقد كانت المياه تتسرب من جوانبها فتبلل ملابس الركاب الموالين لها.

و ما إن وصلت إلى المحطة حتى كانت ثيابها قد تبللت، وحذاؤها أصبحت قدماها لا تقوى على حمله، لكثرة ما علق به من طين ومياه.

دلفت أمينة إلى المحطة متجهة إلى شباك التذاكر واقتنت بطاقة سفرها ، وحملت بضاعتها في الحافلة التي ستقلها إلى السوق.

ثانيا : حوارات الكتاب الودية في الحافلة

انطلقت الحافلة المتوجهة إلى وادي زم كان على متنها ركاب ذوو وجوه و أشكال وألوان مختلفة، و هؤلاء الركاب باعة متجولون يتوجهون كل أربعاء للسوق الاسبوعي لطلب الرزق ، منهم الرجال ومنهم النساء كأمينة "الخبازة" التي اعتادت ومنذ سنوات التوجه إلى هذا السوق، لترويج بضاعتها التي هي الخبز البلدي المصنوع من القمح الصلب الذي تنتجه المنطقة والمشهور بجودته ومذاقه الرائع، الشيء الذي يجعل خبز أمينة هو الخبز المفضل على غيره لدى السواقة، وخصوصا الذين اعتادوا على مرافقتها مرات ومرات على نفس الحافلة التي تقلهم من مدينتهم إلى الأسواق البعيدة.

ومن جملة الركاب نذكر مباركة "العشابة" التي أخذت مقعدها إلى جانب صديقتها مينة "الخبازة" هذا، ومباركة كان لونها أسود لأن أصولها تعود لمنطقة صحراوية اشتهر أهلها بالصدق والإخلاص في العمل الذي ورثوه عن آبائهم وأجدادهم منذ غابر الأزمان، وهي ليست صديقة أمينة فقط، بل هي جارتها في حي الكرمة الذي يقع في أطراف المدينة، وتجمع بينهما القرابة من جهة أمها التي تنحدر من قبيلة أيت أوريبل إحدى القبائل المشهورة ببسالتها ووطنيتها كما تذكر كتب التاريخ المغربي العريق. وهما أرملتان فارق زوجاهما الحياة منذ مدة طويلة، و شمرا على سواعدهما من أجل كسب لقمة العيش الحلال ، ولأمينة ولد وبنت متزوجان، ولم تسمح لها شهامتها القعود في المنزل عند أحد أبنائها،

لأنها لم تتعود طيلة حياتها أن تعيش عالة على أحد ولو كان من صلبها.

أما مباركة فتعيش وحيدة صحبة أحد احفادها الذي توفت والدته منذ خمس سنوات، تكلفت به وأدخلته المدرسة ليتعلم كسائر أبناء الحي، الذين وجدوا لهم مقعدا في المدرسة القريبة من مسكنهم، و هذه المدرسة هي مدرسة فرعية مختلطة تابعة لمجموعة مدارس قريبة من المدينة، وتتكون من أربع حجرات قديمة، بنيت في عهد الاستعمار بالحجارة، و سقفها من القرميد الأحمر، و قد بنى اللقلاق أعشاشه الكبيرة في أعالي مداخنها، مما يزيد المنظر بهجة هذه اللقالق الملون ريشها بالأبيض و الأسود و مناقرها الحمراء، في الأعشاش توجد صغارها التي لم يتغير لون ريشها بعد و لا مناقرها أيضا. و في منظر بديع يشاهد التلاميذ اللقلاق و هو يحمل بمنقاره ضفدعا اصطاده من النهر ليطعم به صغاره التي لا تقوى على الطيران بعد،

وقد اعتمر السنونو الزوايا العلياء من الأقسام و بنى فيها أعشاشه من الطين، و كان التلاميذ لا ينزعجون منه و هو يحلق فوق رؤوسهم ، و هم منهمكون في الدرس، لأنه أصبح جزءا من أثاث حجرة الدراسة.

و قد كانت الأبقار ترعى العشب الوفير بجانب الأقسام ما دامت توجد وسط الحقول الزراعية، و كثيرا ما كانت الأبقار تطل على التلاميذ من وراء زجاج نوافذ حجرات الدرس، و في بعض الأحيان يقتحم حجرة الدرس جدي أو عجل دون اكتراث بالتلاميذ، فيتطوع عريف القسم لأخراجه بلطف. و قد ألف المعلمون ذلك، و لم ينزعجوا له كثيرا كما

كان أول عهد إلتحاقهم بهذه المدرسة القروية. و في كل قسم مدفأة حديدية يتم تسخينها بالحطب الذي يجلبه الأطفال في طريقهم إلى المدرسة.

و في هذه المدرسة يعمل أربعة معلمين يدرسون الأطفال اللغة العربية و الفرنسية، و يعتمرون مسكنا تابعا للمدرسة يشتمل على غرفتين و مطبخ و حمام، و هؤلاء المعلمون محظوظون لأنهم وجدوا مسكنا ملائما تابعا للمدرسة دون أن يتحملوا مشقة التنقل اليومي، أو البحث عن مسكن داخل الدوار، و بذلك كانت سعادتهم مضاعفة، و هم من خريجي مدرسة المعلمين في مدنهم، وقد تأقلموا بسرعة مع محيطهم و اندمجوا مع السكان، الذين رحبوا بهم و هيؤوا لهم وسائل النقل وحمل رحيلهم عند أول إستقرار بالقرية، خصوصا و أنهم جاؤوا من الجنوب المغربي وبالخصوص من أكادير ونواحيها، الشيء الذي سهل مأموريتهم و اندماجهم السريع مع السكان. وبما أن المعلمين كلهم شباب عازبون، فإن كراء المسكن يقتطع من أجورهم مباشرة لفائدة الأملاك المخزنية و بثمن زهيد لا يتعدى ستة دراهم للواحد في الشهر، أما علاقتهم بالسكان فطيبة و لا أدل على ذلك من الحفل الذي تقيمه المدرسة في أخر السنة الدراسية فيشارك فيه الآباء و أولياء التلاميذ و المعلمون، فيقوم الأطفال بترديد الأناشيد الوطنية و الحماسية، و توزع الجوائز على المتفوقين من التلاميذ الذين يودعون صفوفهم على أمل العودة إليها عند بداية السنة الدراسية الجديدة. أما امباركة التي تقوم برعاية وتربية حفيدها المذكور وإعالته لأنه يحمل رائحة ابنتها التي فقدتها منذ سنوات. تجاذبت أمينة ورفيقتها

أطراف الحديث، حول الأحوال والأولاد وتكاليف المعيشة فقالت: هل تعلمين يا أختي أن تكاليف العيش، ارتفعت خلال السنوات الأخيرة، بشكل كبير، فقنطار القمح تضاعف ثمنه وقلت جودته، الشيء الذي أثر على مدخولنا من بيع الخبز، فقد اخبرني السيد العياشي الفقير، الذي اشتري منه القمح، المادة الأساسية لصنع الخبز، أن القمح المحلي أصبح نادرا في الأسواق، وأن الموجود منه هو المستورد، مما أثر في ارتفاع الأثمان. أختي الله يلطف بنا ويجعل في قضائه اللطف.

أجابتها مباركة "العشابة" هل شاهدت النشرة الجوية لليلة البارحة؟ أجابت أمينة بالإيجاب، نعم شاهدتها، و رأيت نهر كريفلة هائجا قد ارتفعت مياهه فوق القنطرة القصيرة، المقامة عليه للعبور إلى الطريق المؤدي إلى السوق، كما شاهدت فيضان نهر سبو الذي تدفقت مياهه على الحقول المجاورة وأفسدت الزرع وجرفته إلى النهر مما سيتسبب في ضياع الفلاحة البكرية و لا يبقى في يد الفلاحين إلا "المازوزي" أي الفلاحة الخريفية.

وقالت مباركة متابعة حديثها: إن أخشى ما أخشاه أن يستمر هيجان النهر ولا نستطيع الوصول إلى السوق هذا اليوم.

قالت أمينة بجديتها المعهودة وبنبرتها الصارمة التي عرفت بها: أنا يا أختي إن كان النهر هائجا فسأطلب من السائق أن ينزل لي بضاعتي على الضفة الأولى للنهر، لأني لا أستطيع أن أغامر بحياتي، والقي بنفسي إلى التهلكة لأن ذلك يعد تهورا. والله سبحانه وتعالى نهانا عن الإلقاء

بأنفسنا إلى الهلاك ونحن على علم به. هذا ما فاهت به أمينة كأنها تنطق باسم القدر المحتوم.

وهكذا استمر الحوار بين الجارتين والحافلة تنهب الأرض نهبا و لما وصلت الحافلة، و هي حافلة من النوع القديم بدل الجديد مزودة بمذياع من النوع الممتاز، يستغله السائق في إدراج الأغاني الشعبية والعيطة المرساوية أو الحصباوية أو الطقطوقة الجبلية، و أحيانا الأغاني الأمازيغية و في كثير من الأحيان يزوده الركاب (بكاسيط) لبعض الأهازيج القبلية وسكيتشات هزلية و غيرها. الشيء الذي يمتع الركاب ويدخل البهجة و السرور عليهم و ينسيهم تعب السفر ويذكرهم بموروثهم الشعبي و كثيرا ما يسافر بعض المغنين الشعبيين مع الركاب، حيث يطلبون من السائق أن يسمح لهم بتقديم بعض أغانيهم التي يغنونها في الحلقة بالسوق، و قد كان من أشهرهم فنان شعبي معروف بالمنطقة يدعى باحسين المشهور بأغانيه الشعبية بالعربية أو بالأمازيغية، و عند إنتهاء من تقديمهم يعملون على جمع بعض التبرعات من الركاب الذين لا يبخلون عليهم ببعض الدريهمات. إلى إحدى القرى، فشاهد السائق جمهرة من الناس تشير عليه بالوقوف، فما كان منه إلى أن توقف مستفسرا عن السبب، فتقدم منه أحدهم وطلب راجيا أن يوصلهم إلى السوق، لأن سيارات الأجرة التي تربط هذه القرية بالجهة المرغوب فيها في حالة إضراب، فتعذر معه ذهابهم إلى السوق في ذلك اليوم. وبما أن السائق كان عاطلا عن العمل، فقد ساقت له الأقدار هذه الصدفة السعيدة في نظره وهي مناسبة لا تعوض، فوافق على إركابهم جميعا وعددهم فاق الخمسة

عشر نفرا إضافيا زيادة على الحمولة المرخص بها.

وكان منهم الرجال والنساء والأطفال والعجزة، وقد حمل هذا العدد رغم أن الحافلة كانت جميع مقاعدها ممتلئة عن آخرها، فأخرج مساعده كراسي نصفية وأضافها في ممر الركاب بين الكراسي الأصلية، رغم علمه أن ذلك ممنوع في القانون.

قالت أمينة: الله يعطينا القناعة، إن هؤلاء السائقين لا يقنعون بأجورهم ويخالفون القانون بإضافة المسافرين رغم عدم توفر المقاعد، لأن ذلك سوف يدخل جيوبهم ولن يسلموه لصاحب المركبة وهذه فرصة نادرة لن يضيعها، مادام يفكر في نفسه فقط. واستمر الحوار بين الجارتين ليشمل مواضيع أخرى تتعلق بالجيران والمعارف من الركاب.

قالت أمينة: كيف حال حفيدك سعيد؟ وكيف يتعامل مع أساتذته؟ وهل هو متفوق أو متوسط في تحصيله الدراسي؟

أجابتها مباركة: ولدي سعيد، وهي تقصد حفيدها الله يرضى عليه، أخلاقه حميدة وسيرته طيبة مع جميع أساتذته الذين يثنون عليه أيما ثناء، ولم يحصل أن اشتكى منه أحدهم أو عنفه أو نهره لأنه لم ينجز واجباته المدرسية. فهو في كل ليلة يسهر على ضوء الشمعة إلى أن ينجز كل تمارينه ويحفظ دروسه ليستظهرها في اليوم الموالي أمام أساتذته الذين يشجعونه، وكلهم مسرورن بجده واجتهاده. و لا أخفيك سرا إذا ما قلت لك إنه الأول في صفه وكذلك كانت أمه رحمة الله عليها عندما كانت في مثل سنه.

وبما أن المسافة بين المدينة والسوق المقصود تتعدى مائة

كيلومتر فان الطريق لا تزال طويلة وما أن أنهت مباركة العشابة الحديث عن حفيدها حتى بدأت الحديث عن السائق ومساعده.

قالت مباركة لرفيقتها سأحكي لك قصة مسعود، السائق الذي يقود هذه الحافلة اليوم، انه سائق عاطل عن العمل وهو يسكن في الحي القريب من حينا قرب "البطمة" الكبيرة التي نمر عليها عند توجهنا لمنازلنا، لقد زوجته أمه الحاجة حليمة رحمها الله بامرأة من قبيلتها وهي ابنة إحدى قريباتها بآسفي وعاش مع أمه وزوجته في بيت العائلة إلا أن بلغ مبلغ الرجال.

وكانت تتوق لرؤية أحفاده قبل وفاتها، خصوصا وأنه ابنها الوحيد وليس لها غيره في هذه الدنيا، فلجأت إلي بصفتي خبيرة في شؤون النساء والولادة، وطلبت مني فحص كنتها ومعرفة سبب عدم إنجابها للحفيد الذي كانت تتمناه، ولم أستطع رد طلبها خصوصا وأنها معرفة قديمة، وكانت ترسل إلي الناس لأعالجهم هم وأطفالهم، وتوصيني بهم خيرا. ولم يخيب الله أملي فوضعت يدي على بطن كنتها لفحصها وعرفت السبب فناولتها بعض "المساخن" وهي أعشاب مختارة وذات فعالية في مثل هذه الأمور، وطلبت منها تناولها مع الحليب الفاتر يوم الجمعة.

وبعد يومين حضرت إلى دار الحاجة حليمة وأوصيت زوجة ابنها أن تغتسل في الحمام الشعبي، وأوصيتها بالذهاب إلى حمام المحجوب المعروف في المدينة القديمة، وفي مساء ذلك اليوم "ضربت لها الطنجية"، وهي عملية تقليدية تستعملها "العشابة" للنساء الراغبات في الولادة،

وهي عبارة عن طنجية مصنوعة من الطين المحمي، تفرغ في الهواء بواسطة شمعة وتدهن بطن المرأة بالزيت البلدي وتوضع الطنجية على البطن المدهون وبما أنها مفرغة من الهواء فان بطن المرأة تمتصه الطنجية لمدة معينة من الزمن، وحينئذ تتدخل "العشابة" أو "الدلاكة" لإخراج البطن منها وبهذه الطريقة مع المساخن التي تناولتها المرأة، فان الله يرزقها الذرية التي كانت تتمناها، وهذه الطريقة مجربة ولها فعاليتها في علاج النساء اللواتي تأخر حملهن لسبب من الأسباب، وفي آخر الشهر جاءت الحاجة حليمة إلى منزلي مهللة فرحة مسرورة، وأخبرتني أن ولدها سيرزق بالذرية التي كانت تتمناها منذ ما يزيد على عدة سنوات.

أما مساعده فله قصة أخرى: إنه حمو ولد منانة اليشيوية وهي تنحدر من آيت يشي، عملت أمه المرحومة المستحيل لتجعل منه رجلا مستقيما، لكنها لم تفلح في ذلك. وها أنت تشاهدين حالته المزرية، لباسه المهلهل، إنه يتناول الحشيش الذي ابتلي به جراء مرافقته لأصدقاء السوء، وقد دخل السجن أكثر من مرة. لكنه في الأيام الأخيرة استقر في العمل كمساعد لسواق الحافلات في هذه المحطة، وقد علمت أنه متزوج وله بنت ويعيش في دوار" لاحونا" الجديد، حيث يكتري كوخا حقيرا. وقد علمت أخيرا من زوجته رحمة بنت الجزار، انه تاب إلى الله ولم يعد يتناول تلك العشبة الضارة التي خربت كثيرا من الأسر، إلا أن صحته تدهورت ولم يعد قادرا على الأعمال الشاقة ويتلخص عمله في وضع الحقائب للتحميل، لأن صندوق البضائع الذي يوجد تحت المقاعد التي يجلس عليها الركاب و هذا ما خفف

المشقة على مساعدي السائقين، حيث أصبحوا لا يحتاجون إلى سلم لوضع الحقائب التي كانت تحمل على سطح الحافلات.

وقد عانت معه رحمة الأمرين لأنه يضربها ويجعل حياتها مرة، وكثيرا ما كانت تحمل ابنتها وتغادر الكوخ الذي تقيمان فيه متوجهة إلى أقاربها الذين يتدخلون، كما نقول بالخيط الأبيض، لإصلاح ذات البين وإعادة المياه إلى مجاريها.

تنهدت أمينة تنهيدة من الأعماق وقالت لمباركة إن هذه الدنيا تلعب بنا ونحن نلهث وراءها حتى يقع الفأس في الرأس، ولا نسمع إلا: الله يرحم الله يرحم. وزادت قائلة: اسمعي يا أختي إن هذه الحافلة التي نقضي فيها جزءا مهما من حياتنا كل أسبوع متنقلين بين الأسواق تحمل أصنافا من البشر، ففي الصف الثالث على اليمين الذي يجلس فيه الجيلالي العطار وجاره حمادي الخضار، إنهم دائما يجلسون في نفس المقعد منذ أن عرفتهم ومن يشاهدهم يظن أنهم أخوين توأم، فالجيلالي صاحب اللحية الملونة بالأحمر والأصفر والأخضر كأنها قوس قزح أطل في الشفق وذلك من كثرة مسحها بيده بعد وزن كل أوقية من الصباغة لزبوناته الكثيرات. إن سلعته مقبولة والنساء النساجات يتسابقن لشراء حاجياتهن من " قيطونه" الذي يضم كل ما يحتاجه النسوة. فعنده " الدبانة الهندية" و"قريسة الميل" و رأس الحانوت و جلد الغزالة وحتى مخ الضبع والحدجة، ومراية الشيطان، إنه تعلم هذه التجارة على يد (دويدا) اليهودي قبل وفاته الذي اشتغل معه منذ أن كان صبيا يافعا،

وبعد وفاة اليهودي اعتمر الجيلالي مكانه في السوق واستغل معرفته بمكان التسوق، ولم يفقد زبونا واحدة من زبونات (دويدا) فمسك الله عليه، وقد بنى منزلا من طابقين في حي السعادة، وله ثلاثة أبناء وبنت جلهم تعلموا في المدارس العصرية، ومنهم من يتابع دراسته في فرنسا، له بنت صيدلية و ابنه الأكبر يعمل معلما بمدرسة قبليين التي نمر عليها عند الذهاب إلى سيدي سليمان. أما زوجته (الشايطة) فهي كما نقول "مرا أومرمورة"، تحسن تدبير منزلها وعلاقتها طيبة مع كل من يعرفها من الناس أو تعرف عليها. إنها حقا "مرا" كما نقول "ديال الزمان". وفي نظري هذا هو سر نجاح الجيلالي العطار، زيادة على خبرته في التجارة وما تعلمه من "ربعات" أي حيل من اليهودي "دافيد" الذي نسميه دلعا "دويدا".

هذا ما يخص الجيلالي العطار. وماذا تعرفين عن جاره حمادي الخضار؟ فقالت مباركة: إن حمادي ولد "البهيوية" نسبه إلى أيت بوهو القريبة من المدينة، فاني أعرفه منذ مدة طويلة، فهو يسترزق الله معنا في الأسواق، بعد أن كان سمسارا في سوق البهائم، وقد حكى لنا مرة عن البغل الذي باعه صاحبه لأنه "حران" يرفض المشي في الطريق، فما كان من حمادي إلا أن وضع في أذن البغل المسكين قليلا من طابة "التبغ"، وبعد لحظة هدأ البغل وصار وديعا كأنه الحمل وراء أمه. كما شاهدته مرة "يروم" جديا نفرته أمه ورفضت إرضاعه فاستدعاه صاحب العنزة، حيث أخذها وأسر في أذنها شيئا لم نعلمه لأنه سر المهنة، ثم وضع الجدي أمام أمه التي لعقته بلسانها بعدما كانت قد نفرته،

وعندما أحس الجدي بحنان أمه التي حفته ارتمى على ثدييها وصار يرضع لأول مرة منذ يومين متتاليين، وأخيرا غير حرفته وعمل في السوق المركزي كحمال لمدة من الزمن. وبعدما تعرف على المزودين الكبار للسوق، اشتغل كخضار، وله حيل عجيبة في ترويج بضاعته.

فمن جملة ما يستعمله في ذلك اشتغال بعض النسوة لصالحه حيث يقمن بزيارة المنازل للترويج لبضاعة حمادي بشتى الأساليب منها: حث النساء من معارفهن على شراء "لوبيا الخضراء" فاصوليا التي أحضرها هذا الأسبوع، وكذا البصل الأحمر الذي لا نضير له، أو التفاح الذهبي الحلو المنتوج في مزارع والماس، وأسلوب هؤلاء النسوة فريد، فهن يذكرن مزايا أنواع الفواكه والخضر الطرية لربات المنازل على أساس ذكرها في سياق حديثهن وليس إظهار المقصود هو الإشهار المباشر الحي، ليس الإشهار الذي تبته القنوات التلفزية.

ولازالت الحافلة تنهب الأرض نهبا في طريقها المعتاد إلى السوق، وهديرها يصم الآذان، والمناظر تتوالى للناظر من نافذة الحافلة، كأنها فيلم سنيمائي بالألوان، إلا أن الأمطار كانت تحجب الرؤيا بعض الأحيان، وفي تلك اللحظة سمعت أمينة حديثا بين سي محمد الموظف بالمحكمة والمعروف لدى جميع زبناء الحافلة يتحدث إلى صديقه سي أحمد فقيه الدوار، الذي بادر قائلا بصوته المبحوح هل تعلم يا سي محمد أن حرفة الفقهاء "الطلبة " لم يعد لها مستقبل في هذه السنوات الأخيرة، لأن الآباء أصبحوا يرسلون أبناءهم إلى المدارس العصرية والحرة ليتعلموا لغة

الأجنبي، ويهمشون لغتهم الوطنية لغة القرآن، التي لولا يقظة بعض الغيورين لضاعت وأصبحت لغة من اللغات الميتة، فمدرسة الحرية التي تقع قرب المسجد العتيق يؤمها بعض الأطفال الذين يتعلمون فيها قواعد اللغة العربية ومبادئ الدين وتاريخ المغرب وحضارته، وهذا شيء مفرح ويثلج القلب. والمعلمون الذين يدرسون بها كلهم غيورون على لغتهم ويبذلون المستحيل من أجل تحبيبها إلى الأطفال، وذلك باعتبارها لغة آبائهم وأجدادهم. و قد فرحت كثيرا عندما حضر أحد الآباء إلى المسجد ومعه ابنه الذي كان يحمل كراسته التي تصفحتها، ووجدت في مطلعها قصيدة "بانت سعاد" المشهورة في الأدب العربي. حينذاك تأكدت أن هذه اللغة لن تموت أبدا، و شجعت الأب الزائر على مواصلة المجهود من أجل السير في نفس الطريق، و من أجل السير في نفس الطريق. ولعلمك فإن الآباء يؤدون عن هذا النوع من التعليم أداء شهريا وذلك للمساهمة في تكاليف التسيير وأداء أجور المعلمين، الذين يتفانون في حب مهنتهم والسهر على تعليم هؤلاء الصبية ليصبحوا رجال المستقبل وعليهم المعول في ازدهار هذه البلاد. لكن السيد محمد القندوسي استحسن حديث صديقه الفقيه سي أحمد الخالدي، وأبدى ملاحظة وجيهة في موضوع تقييم اللغة العربية وحدها واستطرد قائلا: إن الذي يتقن لغة واحدة في هذا الزمن فهو كالأعرج لا يستطيع أن يطلع على حضارة الغير، وعلى ما يجري حوله في هذا العالم الذي أصبح قرية صغيرة، فأصبح المذيع يتحدث في بلد وأنت تسمعه في بلدك، وما ذلك إلا بفضل العلم الذي غزا العالم وساهم في

نشر المعرفة. و ملاحظتي على هذه المدارس، أنها تهمل تعليم اللغات الحية، كما أن المدارس العصرية لا تعطي أهمية كبيرة للغة البلد. لذا فإني أرى أن التعليم في المدارس الحرة، يجب أن يعاد فيه النظر. ففي مدينتنا لا توجد ثانويات حرة، وعلى التلاميذ الراغبين في إتمام دراستهم أن يرحلوا إلى إحدى المدن الكبرى المجاورة أو البعيدة، وعلى آبائهم أن يتحملوا مصاريف جديدة من أجل إقامتهم وتدبير عيشهم وهذا ليس في متناول الجميع، وذلك بخلاف المدارس العصرية أو الأهلية التي يسمونها تجاوزا إسلامية. هذا وان التلاميذ يحصلون على منحة شهرية لمدة تسعة أشهر في السنة، وقد يحصلون على منحة كاملة من أجل الإقامة في الداخلية ويتناولون أطعمة ساخنة وخبزا نقيا، وينامون في أفرشة خاصة كما يتعلمون لغة العصر. وبإمكانهم أن يذهبوا إلى الخارج لإتمام تعليمهم العالي ليتخرج منهم الأطباء والمحامون والقضاة وغير ذلك من الأطر العليا التي تحتاج إليها البلاد. وها أنت يا أخي سي أحمد شاهدت أن الأطر العليا كلها أجنبية أو درست في الخارج. فابن الجيلالي العطار مضى عليه أكثر من 3 سنوات وهو يدرس بالخارج، وكذلك أخته الصيدلانية، وهذه العلوم كما يسمونها العلوم الحية ليس لنا لحد الآن جامعات كافية لتخريج مثل هؤلاء لأن الدراسة فيها تكون بلغات أجنبية. و هذا ما لا يتوفر في المدارس التي نتحدث عنها ونسميها بالحرة. فكل من سهل الله عليه وأتم دراسته الثانوية بها، فما عليه البحث عن عمل متواضع واستغلال حرفة أبيه إذا كان قد تعلمها في صغره كما هو الشأن بالنسبة للبعض

والذين تعرفهم حق المعرفة، ومنهم ولد إبراهيم الزيداني، الذي بعدما أتم دراسته الثانوية اشتغل مع أبيه في دكانه يبيع المواد الغذائية. فلو درس هذا الولد في مدرسة عصرية لوجد له وظيفة بخبرته ككاتب أو ترجمان في المحاكم.

لذا يا صديقي فان رأيك لا يخلو من أهمية، إذ ينبغي لنا أن نهتم بلغتنا ونعلمها مع مبادئ الدين لأطفالنا حتى لا يجنحوا عن طريق الإسلام، دين أبائنا وأجدادنا منذ غابر الأزمان. لذا أرى أنه لابد أن يوجه الآباء أبناءهم إلى الكتاتيب القرآنية حتى يقوم الطلبة بتعليمهم مبادئ الإسلام والكتابة بالعربية حتى إذا ما ولجوا إحدى المدارس الحرة فإنهم لن يجدوا صعوبة في حياتهم الدراسية في المستقبل، على أن يتوجهوا إلى كتاب المسجد على الأقل مرة في الأسبوع ليبقوا على اتصال بما حفظوه من آيات في القرآن الكريم ولأداء الصلاة ومعرفة كيفية الوضوء والصلاة وأركانها وشروطها ومستحباتها و مكروهاتها. وهكذا نجمع بين الجنسيين التعليم العصري مع مزاياه وتعلم اللغة العربية مع المحافظة على إتقان الصلاة وأداء الواجبات الدينية التي فرضها الإسلام على كل مسلم ومسلمة. وأجابه الفقيه سي أحمد إني أعرف أصدقاء حرموا أبناءهم من التعليم في المدارس الأهلية بحجة أنها تعلم الكفر، وأدخلوا أبناءهم الكتاتيب القرآنية إلى أن حفظوا القرآن وسنهم تجاوز اثني عشرة سنة، ثم حاولوا التسجيل في المدارس المسماة الأهلية أو العصرية. إلا أن أولياءهم خيروهم بين مغادرة المدرسة أو مغادرة منزل الأسرة، لكنهم فضلوا مغادرة المدرسة والتحقوا بالمعهد الديني لمتابعة دراستهم بعيدا عن منزل

العائلة. بعدها استقر بهم المقام في أحد المساجد التي اتخذوها سكنا، لما يزيد عن سنة أو ثلاث سنوات، ثم التحقوا أخيرا بالمدارس الحرة بهذه المدينة، وأتموا دراستهم الثانوية خارجها أي بالعاصمة. وهكذا نلاحظ أن قضية التعليم قضية وطنية ومبدئية لدى كثير من الناس، ولن يوجد لها حل إلا بإيجاد مدرسة وطنية تكون مناهجها نابعة من واقع المجتمع المغربي ومستمدة لروحها من تاريخه العريق وحضارته الممتدة جذورها عبر الزمن السحيق.

وليس بعيدا عن سي محمد الموظف، جاره الفقيه سي أحمد يجلس السيد كبور المحراتي ورفيقه في الحافلة السيد رحو الأوريبلي، حيث أشار سي أحمد إلى أن كبور المحراثي يعرفه حق المعرفة منذ مدة طويلة، وهو فلاح متوسط ورث عن أبيه قطعة أرضية يعمل على فلاحتها بنفسه، حيث بنى فيها مسكنا متواضعا مع اصطبل لبعض الماشية التي يستعين بها على تحمل تكاليف الحياة. وقد انتقل إلى المدينة منذ سنة، واستقر قرب أحد أقاربه، واشتغل كبائع متجول ببيع الخضر والفواكه في عربة يدوية يطوف بها أغلب أحياء المدينة مناديا: "مطيشة، مطيشة" أي الطماطم و"الكرعة ها الكرعة"، أي القرع. و قد سمعت من أحد الأصدقاء أنه لم يستطع أن يتأقلم مع محيطه الجديد. وذلك نتيجة المطاردات التي يتعرض لها الباعة المتجولون من طرف الساهرين على نظافة المدينة والمحافظة على رونقها وبهجتها. وقد أخبرني أنه سيعود إلى أرضه وماشيته التى ترك أمر رعايتها لأحد أقاربه، لأن العيش في المدينة أصبح صعبا أكثر فأكثر، ولم يعد في مستطاع الفقراء

تحملها، وذلك نظرا لكثرة التحملات من كهرباء وماء وغاز وتنقل إلى غير ذلك من التكاليف. لكن سي احمد الفقيه أجابه: أنا أذكر لك قصة الشخص الذي يعتمر المقعد الثاني بجانب كبور الذي ذكرت قصته قبل قليل. ذلك الشخص هو المعلم السيد رحو السغروشني، إنه أحد العصاميين الأفذاذ. فقد أنهى دراسته الابتدائية والثانوية والتحق بسلك التعليم كمعلم مؤقت بإحدى الملحقات التابعة للمجموعة المدرسية التابعة لجماعة أيت مالك دائرة تفلت، حيث اشتغل بصفته تلك مدة من الزمن إلى أن حصل على شهادة الكفاءة في التعليم التي تؤهله لمباشرة التعليم بصفته معلما رسميا في القطاع الخاص بعدما تحسن راتبه، و بنى مسكنا لوالديه كما تزوج و بنى مسكنا آخر لنفسه. وله ثلاثة أطفال كلهم من أنجب التلاميذ في مدرستهم، وقد أخبرني أحد الأصدقاء، أنه يهيئ شهادة في الحقوق من أجل التسجيل للحصول على الإجازة في هذه المادة. وربما سيصبح محاميا كغيره من المعلمين الذين سبقوه لنفس الطريق وغادروا سلك التعليم ليلتحقوا بمهنة المحاماة للدفاع عن الحقوق المهضومة وإرجاعها إلى أصحابها، وهم كثيرون اليوم في قاعات المحاكم وباحاتها.

وبعدما مضى وقت غير قليل على ركوب الحافلة من طرف هذه المجموعة المتنوعة، نادى الجيلالي كعادته على أمينة "الخبازة"، وطلب منها أن تحضر له الخبز لإعداد فطوره صحبة رفيقه. وأمينة تعرف ذلك حق المعرفة لأنها ليست السفرة الأولى التي يطلب فيها الجيلالي هذا الطلب، وهو معجب أيما إعجاب بخبزها الذي لا مثيل له في السوق.

وهو مفضل عنده على الخبز الذي تعده زوجته في المنزل، تسلم الجيلالي خبزتين كبيرتين المصنوعتين من القمح الصلب البلدي الذي ينتج بهذه القبيلة و هذا القمح سمي كريفلة نسبة إلى نفس الوادي، حيث يوجد قبر عبد الله بن ياسين الذي قتل في معركة بكريفلة على يد البرغواطيين و الذي مات فيها خلق كثير من الطرفين، التهم الجيلالي الخبز بلهف شديد لأنه قد اقتربت الساعة السابعة ولم يتناول بعد فطوره، وأعطى لرفيقه كسرة كبيرة من نفس الخبز قائلا له تذوق يا صديقي خبز السيدة أمينة، أفضل خبازة في هذه المنطقة، وهي تقتسم معنا هذه الحافلة مدة ليست بالقصيرة، أمد الله في عمرها ومتعها بالصحة والعافية، حتى تؤدي مهمتها لتربية حفيدها الذي تحتضنه منذ أن توفيت ابنتها، وهو كما تقول طفل نجيب وعلامته في المدرسة جيدة، وتتمنى أن يكمل دراسته ويصبح طبيبا يعالج الناس، وهذه هي أمنيتها الغالية في هذه الدنيا.

وباعتبار الحافلة مجتمعا صغيرا حوت عددا كبيرا من الركاب تجاوز عددهم الستين، كل يحمل بين طياته قصة حياته الخاصة، كما هو الشأن بالنسبة لعبد الرحمان السرغيني الذي ذكره حمادي الخضار في معرض حديثه مع جاره الجيلالي العطار حيث قال: إن عبد الرحمان السرغيني هو أحد معارفي، الذي يجلس في الصف الرابع، إنه من إقيلم السراغنة. وهو بالضبط من خميس بويا أحمد حفيد الولي الصالح سيدي رحال، لقد هاجر مع والدته وجدته وخاله و أخته على متن أتان من خميس بويا أحمد إلى قبيلة آيت أورييل، حيث استقر بدوار قرب نهر

"برجلين" وهو أحد روافد وادي بهت. وسبب هجرة عائلته هو موت والده وخوف والدته من أن ينتزع منها أفراد عائلة زوجها ابنيهما عبد الرحمان و شميشة، فغادرت الدوار ليلا بعدما حملت ما استطاعت حمله، مع قليل من الزاد والماء للاستعانة به على كسر الجوع الذي لا يرحم. و قد حكى لي ذلك شخصيا، لأني أعرفه معرفة حقيقية منذ ما يزيد على عدد من السنوات. وقد تربى في حضن والدته التي كانت تشتغل في الحقول شأنها شأن باقي نسوة ذلك الزمن، أما عبد الرحمان فقد تعلم الأمازيغية لأنها لغة المنطقة، وذلك بفعل معاشرته لأقرانه من الأطفال. وقد استقرت هذه العائلة بجوار عائلة الحاج بلقاسم واشتغل خاله عطارا في الأسواق، وبعدما بلغ مبلغ الرجال انتقل مع أسرته إلى الحيمر بايت حدو سعيد، حيث اشتغل بضيعة أحد الأجانب الفرنسيين، وتعلم سياقة الجرار بعدما كان يحرث بواسطة البهائم. وهو الآن يملك قطعة أرضية متوسطة، أنشأ بها حديقة للخضر المتنوعة. وله عدد غير قليل من البقر، الذي تسهر والدته على العناية به وترعاها في الحقول المخصصة للرعي. كما تزودها في المساء بما جمعته من أعشاب خضراء، وهو عضو في تعاونية الحليب بالمنطقة ومتزوج وله ابن واحد فقط. وقد جمعته معنا الحافلة في هذا اليوم لزيارة أصدقائه الصيادين. و لا أنسي أن أذكر لك أنه صياد ماهر يحسن الرماية، وعنده (خماسية) من النوع الجيد، لأن هوايته المفضلة هي القنص البري، وكان يربي الكلاب الضارية التي يروضها على يديه منذ صغرها.

أما الشخص الأسمر الذي يجلس إلى جانب عبد الرحمان، فهو احماد الصحراوي الذي هاجر إلى هذه المدينة من تنغير بالصحراء، ويشتغل رباعا عند السيد مبارك الموساوي منذ ما يزيد على عشر سنوات، وهو فلاح ماهر يحسن اختيار البذور الجيدة للطماطم و البطاطا والبصل، زيادة على أنواع كثيرة من الأشجار المثمرة كالتفاح والحوامض المختلفة. وقد زرته مرة فشاهدت عنده نوعا من البرتقال لا تتعدى حجم التمر المجهول الموجود في المغرب والمشهور بجودته وحلاوته وحجمه المتميز عن غيره من التمور. وهذا زيادة على النعناع المختلف كالمكناسي والعبدي وكذا أنواع الخس المتعددة. وهو يعمل صحبة أخيه محمد وله مسكن في ركن من أركان الحديقة، ويتم سقي هذه الأنواع من الخضر والفواكه بواسطة ناعورة يحركها بغل جيد وضعت على عينيه كمامة تحجب عنه الرؤية، مما يجعله يظن أنه سائر في الطريق ولا يدور في مكانه فقط، و كنت أزور حديقته واستحم في الصهريج الذي يجمع فيه الماء للسقي بالمساء، وذلك لعدم وجود مسابيح عمومية. وقد كانت هذه المدينة تحيط بها الحدائق الخاصة بأصحابها كحديقة سي عمر الأمين ومولاي المكي الرحالي، زيادة على ما ينتجه سكان عين الخميس من الخضر والفواكه. و هذه المنتوجات طبيعية خالصة، لا تعالج بأي مبيد كيفما كان نوعه. أما الحدائق العمومية فهناك حديقة واحدة، وقد كانت ممنوعة علينا، نحن الشباب لأنها خاصة بأبناء الأجانب، خصوصا وأنها تقع قرب قصر المراقب المدني الفرنسي، في الحي الإداري القديم بهذه المدينة، التي ظهرت كثكنة

عسكرية في بداية الأمر، ثم تحولت إلى دائرة إدارية لهذه الناحية.

خاطب السيد محمد الموظف رفيقه سي أحمد الفقيه قائلا: أرانا نتحدث عن الأشخاص المرافقين لنا في هذه الرحلة التي نتمنى أن تتم بسلام، وكأنه يتنبأ بما سيقع عند الوصول إلى وادي كريفلة، بعد قليل. وأجابه الفقيه وماذا تريدنا أن نفعل؟ أعني يا صديقي أن تحدثني عن طفولتك، وكيف حفظت القران ؟ وعلى يد من ؟ إلى غير ذلك من الأمور.

قال سي أحمد الفقيه: إني من مواليد هذه المدينة، في منتصف القرن الماضي من والدي السيد عبد السلام الجبلي، المنحدر من غمارة بشمال المغرب، و والدتي من الشاون، ولي ثلاثة إخوة كلهم ذكور توفي منهم واحد والآخرون لا يزالون على قيد الحياة، وقد حفظت القرآن على يد جدي السي عبد الله، الذي تخرج على يد عدد من "الطلبة" المشهورين في البلاد، لم أكن أعرف كيف دخلت الكتاب، وكل ما أعرفه أني عندما أتذكر أجد نفسي في الكتاب وأنا صغير جدا لا يتعدى عمري أربع سنوات، وقد كان جدي يحبني ويحنو علي، رغم تشدده مع المتهاونين من المحاضرية. وقد بدأت كما هو معروف لدى فقهاء الكتاتيب وكل من تعلم في الكتاب بقصار الصور، وتعلمت الكتابة تدريجيا، إلى أن صرت أحسنها، ولما بلغت العاشرة من العمر كنت قد حفظت أكثر من 30 حزبا وختمت القرآن وعمري لا يتجاوز الثانية عشرة، ولازلت أتذكر يوم طلب جدي من والدتي أن أنام معه في الكتاب لأراجع "الصوار" أي ما حفظته من القرآن الكريم. وعند استيقاظي قبل آذان

الفجر شعرت بغبن واحتقار لطفولتي، كيف أن الأطفال مثلي لا يستيقظون إلا بعد الساعة السابعة على الأقل، وحظي التعس فرض علي أن استيقظ قبلهم بأربع ساعات على الأقل، لكن ليس لي خيار آخر إلا الرضوخ للواقع تلبية لرغبة والدي العزيزين. وقد كانت والدتي تحمل لنا بعض الأحيان الفطور الذي يتكون من الشاي الساخن والخبز الملوي مع السمن أو الزيت. وقد رضيت بقدري وأسلمت أمري إلى الله. هذا وقد كان جدي يثني على اجتهادي لأني كنت أتوفر على ذاكرة للحفظ لا تتوفر عند جميع أقراني. وأتذكر يوما أن الفقيه مرض وطلب منا نحن المحاضرية أن نتوجه إلى كتاب السي المكي لعرض ألواحنا وكتابة صور جديدة، وقد تعثرت في سرد ما كتبته في لوحي، فما كان من الفقيه إلى أن طلب مني عدم المحي وأمرني بمراجعته، وهذا لم يحدث لي منذ بدأت حفظ القرآن، فأجهشت بالبكاء لكن سي المكي أمرني بإعادة السرد مرة ثانية فوفقت في ذلك ومحوت لوحي كسائر المحاضرية. حكى السي المكي ذلك الى والدي وجدي، الذي أثني على أيما ثناء، وأخبر الفقيه سي المكي، أنه لم يسبق لي أن تغيبت أو تهاونت في حفظ لوحي، وهكذا حفظت القرآن. هذه قصتي مع حفظ القرآن، وأنت كيف أصبحت عطارا؟ قال الجيلالي، إني من مواليد مولاي بوشعيب ناحية دكالة و والدي فلاح متوسط، و أمي من أولاد فرج، وأنا رابع إخوتي، وقد هاجر والدي إلى هذه المدينة طلبا للرزق نتيجة توالي الجفاف لمدة سنتين متتاليتين. فاشتغل والدي عند أحد اليهود من التجار المعروفين شمسون، مختص في شراء المنتوجات الفلاحية

من قمح وشعير وذرة وغيرهما، وقد كان والدي المساعد الأيمن لمشغله شمسون، المعروف بتجارته في الحبوب في هذه المنطقة. وقد كنت أزور والدي في عمله فلاحظ اليهودي نباهتي وخفتي وسرعة تعلمي، ثم سأل والدي لماذا لم تدخله إلى المدرسة فأجابه: لقد تعلم ما يكفي، وأنا أتمنى أن يكون تاجرا حاذقا وناجحا في عمله، فاقترح السيد شمسون على والدي أن اشتغل مساعدا مع السيد داوود المدعو "دويدا"، العطار المشهور في هذه المنطقة، وعلى يديه تعلمت حرفة العطارة التي اشتغل فيها لحد الآن. وبعد وفاة مشغلي، منحني مكانه في السوق لأنه لم يعد يقوى على مشقة السفر، ومنذ ذلك وأنا اشتغل في هذه الحرفة التي افتخر بها، لأنها منحتني رزقا وفيرا وخبزا كثيرا، أدامه الله علينا جميعا. و منها تزوجت وبنيت المنزل الذي تعرفه، وعلمت أبنائي تعليما مناسبا، و أنا والحمد لله لازلت في صحة جيدة، و أحمد الله على كل حال.

كان اليوم ممطرا بل الأسبوع كله، لم ينقطع تهاطل المطر، ففاضت الأنهار كما ذكرت أمينة لمحدثتها السيدة مباركة التي ذكرتها بالنشرة الجوية لليلة البارحة، أي قبل السفر، والتي جاء فيها أن الجو سيكون مضطربا، وستنزل أمطار عاصفية في المنطقة كلها وثلوج في قمم الجبال التي يتعدى ارتفاعها ألفي متر. وما إن وصلت الحافلة إلى القنطرة المقامة على نهر كريفلة، والتي لا يتعدى ارتفاعها مترا ونصف حتى توقفت، وشاهد السائق ومساعده وكذا الركاب مرور المياه فوق القنطرة، وهي تتدفق بسرعة فائقة، بلونها الداكن، لأن الشعاب كلها تصب في الوادي،

وقد حملت معها جثث الحيوانات التي جرفتها في طريقها فشاهد الركاب أنواعا من جثث الحيوانات وهي تارة تطفو فوق الماء وتارة تغوص فيه إذا ما صادفت حفرة، ثم تظهر بعد ذلك في مكان آخر، بفعل سريان المياه واندفاعها بسرعة هائلة في مجرى النهر. و قد تعدى ارتفاع المياه فوق القنطرة ما يزيد على متر ونصف، الشيء الذي لا يسمح بمرور السيارات أو الحافلات أو أي شيء آخر. وبالمناسبة فقد وضعت علامة على ضفة الوادي لمعرفة ممنوع المرور فوق القنطرة، لأن ذلك سيعني المجازفة والهلاك المحقق، فسأل السائق مسعود مساعده حمو عن حالة القنطرة، وهل عليه المرور فوقها دون مخاطر. وبعدما نزل المساعد من الحافلة وشاهد فيضان المياه على جانبي القنطرة، ومرورها بشكل متسارع بسرعة هائلة فوقها بما يتجاوز المتر، أخبر السائق بما عاينه، مشيرا أن المرور فوق القنطرة في هذه الحالة، يعد أمرا غير محمود العواقب ومجازفة غير لائقة. وفي هذه الأثناء وصلت إلى القنطرة سيارات أخرى خفيفة وشاحنة ونصف نقل. ونزل السواق لمشاهدة المياه المتدفقة، ومنهم من قفل راجعا من حيث أتى، ومنهم من وقف منتظرا الفرج، لعل المياه تهدأ وتظهر القنطرة ومعالمها ليمكن الاهتداء بها عند العبور. كما نزل كل المسافرين تقريبا، إلا من عجز عن النزول وفضل البقاء في مقعده، وشاهدوا بأم أعينهم فيضان النهر وتقلب مياهه المتدفقة بسرعة جارفة، كل ما تجده في طريقها.

قالت أمينة لصديقتها مباركة: أنظري يا أختي إلى هؤلاء الركاب، إنهم واقفون على ضفة النهر الجارف. قال سي

أحمد لفقيه مخاطبا الركاب: إنكم بمغامرتكم ستلقون بأنفسكم إلى التهلكة، وقد قال عز وجل: "ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة " فاني أرى أن نرجع إلى مدينتنا مادامت الحافلة موجودة، ونؤجل سفرنا إلى يوم لاحق إلى الغد مثلا، ربما يتحسن الجو ويتوقف هطول الأمطار. فأجابه أحدهم أسي لفقيه: ألا تعلم أن لنا أطفالا وعائلات في انتظارنا بوادي زم، وأن غيبتنا طالت ونحن في شوق شديد لرؤيتهم. وقال آخر مؤيدا ما فاه به المتحدث ومعارضا لرأي الفقيه. وبصوت عال كأنه يخطب في محفل سياسي لعله بصوته المرتفع يقنع الركاب بالعبور.

وزاد سي أحمد الفقيه قائلا: ألا توافقون أن نطلب من سكان هذه المنطقة القريبة من الوادي أن يحضروا بعض الفرسان لنستعملها في العبور إلى الضفة الأخرى، وبعد ذلك تلحق بنا الحافلة بعد إفراغها من الركاب، وبذلك نجتنب كارثة محققة. ألا توافقون على رأيي، وأخبركم أن الخيل كما تعرفون تحسن السباحة هي والكلاب سيان. أما القطط فهي عدوة للماء، وقد كنت مسافرا مرة منذ كنت صغيرا، وساقتني الأقدار لعبور نهر برجلين المعروف بقبيلة أيت أوريبل، وصادفت أن كان النهر المذكور وهو رافد من روافد وادي بهت، في حالة فيضان، فلم أستطع العبور، ومكثت انتظر الفرج، والشمس أوشكت على الغروب، ولا زالت أمامي مسافة كبيرة للوصول إلى مقصدي. و في تلك الأثناء جاء أحد الشبان على ظهر فرس أسود، وحملني إلى الضفة الأخرى.

تم تدخل رحو الأوريبلي المعلم السابق الذي ألقى شبه درس حول نهر كريفلة ذاكرا أن هذا النهر يعد من بين الروافد الهامة لنهر كرو الذي يصب بدوره في نهر أبي رقراق الذي أقيم عليه سد يدعى "سيدي محمد بن عبد الله"، ومن بحيرته تشرب مدينة الرباط. وهي بحيرة تسع كما هائلا من الماء الذي تعيش فيه أسماك متنوعة، منها من جلب لتنقية البحيرة من الأعشاب. إلا أن هذه البحيرة رغم فوائدها العظيمة فإنها تسببت في عرقلة المواصلات بين ضفتيها بالنسبة للسكان القاطنين في هذه المنطقة. وأخيرا تذكر السيد رحو أنه ليس أمام تلاميذه وقطع درس الجغرافية أمام الركاب واعتذر على ذلك مذكرا أن الفيضان فيه خير كثير للمنطقة رغم ما يسببه من خسائر، تكون غالبا جسيمة.

و إني أرى أن نرغم السائق بالعودة بنا إلى نقطة انطلاق الحافلة، وبهذا نجنب أنفسنا و عائلاتنا مغبة هلاكنا، خصوصا ولكل منا عائلة تنتظر أوبته.

أما حمادي الخضار صديق الجيلالي العطار، وهو من الزبناء الأوفياء لهذه الحافلة فقد خاطب الواقفين على الضفة قائلا: أن هذا المطر فيه خير كثير، ولولاه لما نبت الزرع أو توفرت مياه الشرب لنا ولدوابنا وماشيتنا، لذا لا تقلقوا وإن وافقتموني الرأي فإنه علينا أن نطلب من سكان هذه الضفاف أن يحضروا لنا جرارتهم، لأن عجلاتها كبيرة وقوية يمكن أن تعبر النهر دون مشاكل، فرد عليه أحد الحاضرين من الركاب، قائلا: أن الجرار لا يستطيع أن يمر لأنه لا يعرف مكان القنطرة المغمورة الآن بالمياه عن

آخرها، ومن رأيي أن نعبر في الحافلة "واللي كان يكون" وأن الإنسان لا يموت إلا مرة واحدة فتشجعوا واتكلوا على الله.

تم تدخل سي محمد الموظف، وأيد تدخل الفقيه، الذي ينصح بعدم عبور النهر وهو هائج، والمياه قد فاضت على جانبيه حيث قال: أيها الإخوان إن أرواحكم أمانة في أعناقكم فلا تسترخصوها مجانا وأن حالة النهر لا تسمح بالعبور إلى الضفة الأخرى من النهر تذكروا أن لكم اسرا وأطفال في انتظار أوبتكم سالمين، فلا تغامروا، واطلبوا من السائق أن يرجعكم إلى مدينتكم، قبل أن تعودوا على ظهوركم محمولين على الأكتاف إذا ما قدر الله وغرقكم وسط هذا الكم الهائل من المياه. تدخل السيد كبور وهو من زبناء هذه الحافلة، ونصح الحاضرين بالعبور قائلا :

"اللي ضربك ما تخطاك" وقد سمعت أحد الفقهاء يردد قول الله تبارك وتعالى: "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا" إذا ما كان أجلنا لم يصل بعد فسنعبر النهر بسلام، ونصل إلى أهالينا سالمين غانمين.

قال أحد الركاب من الذين صعدوا الحافلة في الطريق : أيها الإخوان إني أراكم قد اختلفتم في اتخاذ القرار الصائب، ونحن لم نصعد الحافلة إلا للوصول إلى وادي زم، واني لا اوافق المطالبين بالعبور، وأقول لكم إني كنت جنديا في الجيش الفرنسي، وحضرت فيضانا لنهر "لواز" الذي يشق إحدى القرى شقا في جداول كأنها أصابع اليد، وعندما يفيض النهر فان هذه القرية تغرق عن آخرها، وقد ارتفع منسوب المياه إلى ما فوق المتر، وقد شاركت في الإنقاذ

حيث وضعت متارس على أبواب المنازل لكن دون جدوى، وقد شاهدت أحد المنقذين يتوسل إلى السكان، من إخلاء منازلهم لكنهم رفضوا رفضا قاطعا رغم تكرار التوسل من طرف الجهات المسؤولة عن الإنقاذ والإسعاف. و أخيرا طلب منهم أن يمكنوا العجزة والمرضى والأطفال من مغادرة المنازل لكن الاستجابة كانت ضعيفة جدا. لهذا فإني أرجوكم أن لا تغادروا الحافلة وساعدوا السائق بركوبكم الحافلة مرة ثانية وأمروه بالعبور، كما فعل سكان القرية التي حكيت لكم عنها، لأنهم رفضوا أن يغادروا منازلهم، كذلك فنحن لن نغادر هذه الحافلة وسنواصل المسير بالعبور إلى الضفة الأخرى حتى نصل إلى مقصدنا وهو الوصول إلى وادي زم إن شاء الله سالمين، وبعد هذه المداخلة المشفوعة بمثال للفرنسيين سكان القرية التي يشقها نهر "لواز" كما ذكرت وقد شاهدت ذلك بأم عيني، وأنا جندي ملتحق بإحدى وحدات الجيش الفرنسي بهذه القرية الصغيرة، وعند ختام كلامه صفق بعضهم استحسانا لرأيه، وذلك بالتصفيق والصلاة على النبي.

وأخيرا تقدم أحد الشيوخ وهو من الركاب الجدد الذين استقلوا الحافلة في الطريق وقال: إخوتي صلوا على النبي والتمس من الركاب المتحلقين في دائرة كأنهم في رقصة أحيدوس أو أحواش، والمتدخلون يقفون في الوسط ويخاطبون الركاب، وقد طلب هذا الشيخ ذو اللحية البيضاء والعمامة الشرقاوية، و السلهام الزموري، وهو يتوكأ على عصاه متوسلا وراجيا من الركاب أن يتقوا الله في أنفسهم، وأن يرجعوا إلى الصواب، وألا يغامروا بأنفسهم وأولادهم

وأموالهم من أجل الوصول إلى المجهول، الذي لا يعلم كنهه إلا الله سبحانه وتعالى، أبنائي إني أرجوكم وأتوسل إليكم أن تعودوا إلى الحافلة مرة ثانية من اجل الرجوع إلى الرباط، أو تغيير الطريق للوصول إلى وادي زم عبر تفلت رغم بعد المسافة، وأن هذا الطريق هو الأسلم في هذه الحالة، لأن النهر لن تتراجع مياهه حتى ولو بقينا هنا إلى الصباح. فما رأيكم؟ فانبرى أحدهم قائلا: يا سيدي الشيخ إننا راغبون كيفما كان الحال في الوصول إلى مقصدنا وقضاء ما نحن ذاهبون من أجله والعودة في المساء إلى مدينتنا التي انطلقت منها الحافلة هذا الصباح. وبعد اخذ ورد، قرأ الجميع الفاتحة ودعوا الله أن يسلمهم حتى يعبروا النهر بسلام آمنين إن شاء الله، اقرءوا الفاتحة وصلوا على النبي، واطلبوا من العلي أن يسلمنا وينجينا، وأن يرحم موتانا ويشفي مرضانا، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

وقبل أن يتجه الجميع لامتطاء الحافلة تقدمت امرأة من الركاب، وصاحت في الجميع أتمنى أن تسمعوا كلامي وترحموا ضعفي، وتركبوا الحافلة لأصل إلى وادي زم قبل فوات أوقات الزيارة بالمستشفى الإقليمي، لأن ابنتي طريحة الفراش هناك وأنا كأم قادمة لعيادتها بعدما تركت أبناءها الصغار في عهدة جارتي حتى أعود في المساء إن شاء الله تعالى لهذا بعد الاطمئنان على صحتها، لأن الأطباء أخبروها بأنها مصابة بداء خبيث قيل إنه لا علاج له لحد الساعة، ويسمى العيدا، فصحح لها أحد الركاب الاسم وقال إنه "السيدا" يا خالتي. وإننا لندعوا الله أن يعجل بشفائها، أما الأدوية التي يستعملونها لحد الآن فهي مسكنة فقط. وما إن

انتهت المرأة من كلامها حتى تقدمت أمينة "الخبازة" التي أبانت عن شجاعة نادرة، حين انبرت أمام الواقفين المترددين، وصاحت بأعلى صوتها مخاطبة السائق ولد مسعودة ومن خلال مجموع الركاب الذين تجمعها بهم علاقة مودة واحترام، قائلة : " أولد مسعودة، أرجعنا إلى مدينتنا، تذكر أن لك ابن لم ترزق به زوجتك إلا بعد انتظار طويل، وعلاج مستمر من طرف مباركة "العشابة" التي تعرفها حق المعرفة. إني أنصحك وأخاطب من خلالك جميع الحاضرين الذين أدعوهم للعودة إلى أهاليهم قبل أن "يقع الفأس في الرأس" أي قبل أن" يبلغ السيل الزبا"، أني أرجوك يا ولدي أن تسمع كلامي، وتعود بنا عاجلا إلى نقطة انطلاقنا هذا الصباح. لكن السائق أطرق برأسه، وأخذ يفكر في كلام مينة "الخبازة" وتذكر صورة ابنه الصغير الذي لازال في سنواته الأولى، كما تذكر صورة والدته مسعودة وهي تسعى علها تجد من يعالج عقم زوجة ابنها. و لازال يتذكر حضور مباركة "العشابة" في ذلك اليوم الذي لا يتذكر تاريخه بالضبط، وكيف حبلت زوجته بعد ذلك العلاج الشعبي الذي قامت به مباركة العشابة.

وفي هذه الأثناء، قالت مينة "الخبازة" إذا لم تسمع كلامي فإني أرجوك أن تنزل سلعتي قبل العبور، فحاول بعض الركاب ثنيها عن قرارها الذي اتخذته بشجاعة نادرة، ومن الركاب من أيدها ومنهم من عارضها، لكن قرارها كان قرارا نهائيا لا رجعة فيه. في هذه الأثناء تقدمت مباركة وطلبت منها العدول عن رأيها، لكن دون جدوى. و أخيرا، رجتها وبكل إلحاح، إذا ما قدر الله وغرقت الحافلة في النهر

الجارف، فان ولدي أي ولد ابنتي هو أمانة في عنقك. و أنت تعرفين أنه لا أهل لي بهذه المدينة، ولا أقارب يمكن أن يقوموا برعاية ولد ابنتي. فاغرورقت عينا أمينة "الخبازة" وأجهشت بالبكاء ورق قلبها مستغربة طلب جارتها مباركة، ونصحتها قائلة: لماذا لا تبقي معي هنا حتى نعود إلى مدينتنا، لكن مباركة بادرتها بقولها، إن لي مهام عاجلة سأقوم بانجازها بوادي زم هذا اليوم.

وبعد هنيهة أمر ولد مسعودة مساعده بإنزال سلعة مينة الخبازة، وصعد الجميع إلى الحافلة، وانقسم الركاب إلى فئتين فئة مؤيدة للعبور، وفئة أخرى تفضل الرجوع، لكن رأي الفئة الأولى كان هو الراجح، حيث صاح بعض الركاب: توكل على الله، وصاح بعضهم اللهم صلى عليك أرسول الله، فما كان من السائق إلا الانصياع لهذا الرأي، وشرع في العبور.

ثالثا : فاجعة العبور والغرق

أمام أنظار أمينة الخبازة ركب الجميع الحافلة التي شرعت في عبور القنطرة التي لا تظهر معالمها للعيان، ولد مسعودة أمام مقود الحافلة ومساعده إلى جانبه، ضاربا عرض الحائط بكل ما تعلمه للحصول على رخصة السياقة ورغم وجود علامات تشير إلى أن الطريق مقطوعة لكنه ركب رأسه، وانصاع لنداءات بعض المغامرين من الركاب الذين كانوا يصلون على النبي صلى الله عليه بصوت واحد، وما أن شرعت الحافلة في العبور فوق القنطرة التي لا تظهر معالمها، والمياه تنساب متدفقة من فوقها محدثة صوتا كأنه الرعد، وما إن قطع السائق عدة أمتار وابتعد عن الضفة حتى خانته رؤيته وانقلب إلى يسار القنطرة، فحاول السائق إرجاعها لكن دون جدوى، وما أن يئس من ذلك حتى رمى بنفسه في الوادي هو ومساعده تاركا أمر الركاب ليلقوا حتفهم اختناقا، كل هذا وقع أمام أنظار أمينة "الخبازة" التي وقفت على الضفة تراقب عن كثب ما حدث، وجال في خاطرها ما تجاذبته من حديث مع رفيقتها مباركة "العشابة"، ولم تنس وصيتها بخصوص حفيدها الذي سيصبح لا معيل له ولا سند يسنده، إلا أمينة "الخبازة"، أما ولد مسعودة، فلم يخطر في باله أنه سيغامر ويتلاعب بأرواح الركاب، الذين منهم من شجعه على العبور. لقد ارتمى في النهر وكتبت له النجاة مع الناجين الذين كسروا النافذة الخلفية للحافلة وصعدوا فوق سطح الحافلة فساعد بعضهم البعض، منتظرين الفرج، أما الذين لم يستطيعوا

الوصول إلى النافذة المكسورة للنجاة بأرواحهم من الهلاك المحتوم، الذي ساقته الأقدار لهم في هذا اليوم الممطر العاصف. قال أحد الناجين أن مباركة "العشابة" التي حاولت الصعود إلى سطح الحافلة لكن أجلها قد حان، وكان مصيرها الاختناق مع عدد غير قليل من الركاب الذين هلكوا عن أخرهم.

كل هذا شاهدته أمينة وهي تتحسر على ما وقع، وقد اشتد حنقها وغيظها على ولد مسعودة، الذي نصحته ولم يعمل بنصيحتها.

و تمنت لو كانت الحافلة مزودة بكاميرا داخلية حتى تسجل المشهد المروع للركاب وهم يستغيثون ولا من مغيث ويستنجدون ولا من منجد، ونشاهد من نجوا وكيف تمكنوا من الإفلات من الموت المحقق الذي لا مفر منه.

رابعا : الإنقـــــــــــــاذ:

لقد كانت الضفة مليئة بالسيارات الخفيفة التي نزل ركابها منتظرين الفرج، و منهم من نصح سائق الحافلة بعدم المغامرة لكن دون جدوى. وكان من نجا من الغرق قابعا فوق سطح الحافلة التي غمرتها المياه يستنجد ويصيح طالبا النجدة، فتطوع احد الواقفين بإخبار الجهات المعنية التي حضرت إلى عين المكان بعدما قاموا بتنظيم الحماية وذلك بمساعدة بعض المتطوعين لإنقاذ الركاب الذين كانوا على سطح الحافلة وذلك بربط حبل لمساعدتهم على العودة إلى الضفة أي بداية القنطرة التي طمست معالمها تماما. و بعد تدخل فرق الإنقاذ بما فيها الطائرات المروحية والفرقة البحرية للدرك ومصلحة الكوارث والوقاية المدنية ومصلحة الأشغال العمومية وكل الجهات المعنية، وبواسطة الحبل المذكور عاد إلى الضفة عدد من الناجين الذين سلموا من الهلاك المحقق. فبادر احد العائدين إلى تقديم الشكر للمتطوعين الذين بذلو جهدا مشكورا من أجل إنقاذ بعض الركاب من الموت المحقق. ثم اتجه إلى أمينة "الخبازة" وشكرها على شجاعتها وقرارها الصائب، وقال: لو وافقنا على رأي أمينة "الخبازة" لنجونا من الغرق في هذا النهر الممتلئ بالأوحال وجثث الجيف والحيوانات التي جرفتها المياه المتدفقة العاتية.

قالت أمينة "الخبازة"، إنكم لم تسمعوا نصيحتي وانقدتم لرأي ناقصي الخبرة منكم، فوقعتم في المحظور ووصلتم

إلى هذه الحالة المزرية، ثم تذكرت رفيقتها مباركة "العشابة"، التي لم يظهر لها أثر مع الناجين الذين استطاعوا الصعود إلى ظهر الحافلة، التي امتلأت بالمياه عن آخرها، ثم سألت أحد الناجين عنها الذي أجابها بصوت مبحوح الله يرحمها هي ومجموعة كبيرة من الركاب، غمرتهم المياه داخل الحافلة، وأغلبهم مات مختنقا، وقد شاهدت عددا من الركاب ينزلقون من على سطح الحافلة التي كانت مائلة على يسارها ومقدمتها مغمورة بالمياه وربما سيعثر على بعضهم على ضفاف النهر بعد أن تنزل المياه ويخف جريانها الهادر، وذلك ما كان، رغم وصول الإمدادات لتقديم الإسعاف من أجل إنقاذ أكبر عدد ممكن من الركاب الذين منهم من حملوا على متن الطائرات الحوامة إلى المستشفيات القريبة، وذلك بعد تقديم الإسعافات الأولية لهم بواسطة المسعفين ورجال الإنقاذ و الممرضين والأطباء وغيرهم من المتطوعين، وقد استمرت هذه العملية إلى المساء فكانت النتيجة الأولية لهذه الكارثة 20 قتيلا وعدد كبير من المفقودين.

وقالت أمينة لأحد المسافرين الذين عادوا إلى الضفة وثيابه مبللة ومليئة بالأوحال، وقد فقد كل أمتعته وما كان يحمله من هدايا لأطفاله وزوجته: أنظر يا سيد إلى هذه الجثث الممدة أمامنا، إنها لأناس كنا نحدثهم قبل قليل، ومنهم من رافقنا على متن هذه الحافلة "المشؤومة"، ومنهم من كنا نلقاه كل أسبوع على متنها، ومنذ هنيهة كنا نتبادل الأحاديث ونستأنس ببعضنا كأننا أسرة واحدة، صففت جثث الضحايا العشرين واحدا بجانب الآخر، وصارت جثتا هامدة بعدما

كانت تنبض بالحياة قبل قليل وجال في خاطر أمينة المآسي التي تركتها هذه الحادثة الأليمة وتصورت عائلاتهم وكيف ستتلقى النبأ المحزن، وكدا زوجاتهم اللواتي ترملن وأطفالهم وبناتهم الذين أصبحوا أيتاما وفي آمالهم التي تبخرت في لمحة عين، وذلك كله نتيجة التهور وعدم الإصغاء لرأي العقلاء من الركاب الذين حثوا السائق على عدم المغامرة بأرواح المسافرين.

وبالرجوع إلى الحوامة التي حضرت إلى عين المكان كان يقودها ضابط من نفس المنطقة صحبة مساعده، والذي حكى أخيرا أنه عاين كثيرا من الجثث تطفو ثم تغمرها المياه من مجرى النهر. ومن الضحايا من تمسك بغصون هذه الأشجار القريبة من المياه الغاضبة، وهي تزمجر كالأسد الغضبان، وصور ذلك المشهد الذي ذكره بفيضان نهر أوريكا قرب مولاي إبراهيم ناحية مراكش، منذ سنوات، حيث كان المصطافون وأغلبهم من نواحي بعيدة يستظلون تحت الأشجار الوارفة على ضفاف نهر أوريكا، ولم يكونوا يعلمون أن النهر سيغدر بهم وأن المياه ستجرفهم هم وأبناؤهم وأمتعتهم، وستتحول نزهتهم الصيفية إلى مآسي يحكيها المصطافون لأبنائهم. أما سكان المنطقة فقد استشعروا بقرب فيضان النهر، وكنت تسمع بعضهم للبعض الآخر، باللغة الأمازيغية: "آسيف يوشكاد" أي النهر قادم، وأن فيضانا على وشك الوقوع، وأغلبهم غادر المصطاف أو صعد إلى الجبل ليتجنب الكارثة .

قالت أمينة "الخبازة" إن هذه الطائرة ستساهم ولا شك في إنقاذ بعض الركاب، أخبر قائد الحوامة "هلوكوبتر" رؤساءه

بالمشهد المروع للضحايا وهم يستغيثون ولا من مغيث، و يتشبثون بأغصان وجذوع الأشجار المتدلية على ضفة النهر، دون طوق نجاة، وقد رأى ويا لهول ما رأى، امرأة تحمل رضيعها وقد وضعته فوق أكتافها وهي متشبثة بجذع شجرة، والمياه تتقاذفها يمنة ويسرة وصياحها يتعالى فترة ثم يخفت أخرى، فحاول إنقاذها حين حام حول مكان تواجدها وألقى لها طوق نجاة طالبا منها بواسطة مكبر الصوت التمسك بطوق النجاة هي وصغيرها، وان تلف الحبل على خصرها، وتضع صغيرها على صدرها وبين يديها حتى لا يفلت وتكون الكارثة أعظم، فما كان من هذه السيدة إلا أن طبقت التعليمات التي تلقتها بواسطة مكبر الصوت، وبعدما تأكد سائق الحوامة من تطبيق كل التعليمات أنزل مساعده بواسطة حبل ليتأكد من أن الأمور تجري على ما يرام وأن الضحية وابنها الرضيع ستصل إلى الطائرة الراسية في الهواء بأمان دون مضاعفات غير متوقعة. وبعد مدة قصيرة كان مساعد الربان إلى جانبه قد أتم العملية وتأكد من أن الضحية ستصل بسلام هي ورضيعها، الذي لم يخفت صوته ولو للحظة وجيزة. كل هذا وقع أمام أنظار أمينة "الخبازة" وبعض الحاضرين من سكان المنطقة الذين حجوا إلى مكان الحادثة علهم يقدمون بعض المساعدة تطوعا لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وقد أحضر البعض خيولهم علهم يستخدمونها في إنقاذ ركاب الحافلة الذي ساقهم قدرهم ليصبحوا ضحايا هذه الكارثة.

وقفت أمينة تتطلع باهتمام بالغ لما قامت به طائرة الهلكوبتر من إنقاذ شجاع للمرأة و ابنها الرضيع وتمنت لو

كانت صديقتها مباركة "العشابة" هي الأخرى موضوع إنقاذ بواسطة هذه الطائرة، لكن تجري الرياح بما لا تشتهيه السفن. واستمر الإنقاذ إلى ساعة متأخرة ونظرا لغياب الإنارة وشساعة المكان وهطول الأمطار التي لم تنقطع منذ ليلة البارحة، فقد غادرت مجموعة الإنقاذ المكان على أن تستأنف العملية في الصباح الباكر عند بزوغ الشمس لليوم الموالي للحادثة. واستمر انتشال الجثث داخل الحافلة خصوصا ركاب المقاعد الأمامية للحافلة، الذين غمرتهم المياه، وغادروا الحياة بعد مهلة قصيرة من غرق الحافلة.

خطر ببال أمينة "الخبازة" وهي تجول بخاطرها مستذكرة وجوه ركاب الحافلة وخصوصا زبناءها المقربين وعلى رأسهم الجيلالي العطار وحمادي الخضار، الذين لم يظهر لهما أثر، إلا بعد انتشال الحافلة وإخراج من كان فيها من القتلى، وعلى رأسهم الجيلالي وحمادي الذين كانا في المقاعد الأمامية للحافلة، فقد راعها أن تنظر إلى جثتيهما وهي ممدة على الأرض في انتظار نقلها على متن سيارة الإنقاذ إلى أقرب مستشفى في المنطقة، وقد تطوعت بإخبار عائلتهم بما وقع، وذلك أضعف الإيمان، ووفاء منها لعلاقتها بهذين الزبونين الوفيين والذين جمعتها بهما هذه الحافلة منذ مدة طويلة، وصعب عليهما فراقهما بهذه الطريقة المفاجئة والتي لم تكن منتظرة، وتذكرت فيما تذكرت كيف ناداها قبل مدة قصيرة وطلب منها خبزته المفضلة، التي ناولته إياها معتبرة كلامه إطراءا لها وتشجيعا لعملها في صناعة الخبز "البلدي" المفضل لدى جميع من يعرفها، ولم يهدأ لها بال إلا بعد أن اطمأنت على وصول الخبر إلى العائلة للقيام بما

يلزم من إعداد لدفن رفاتهما بمسقط رأسيهما.

كما شاهدت سيارات الإسعاف التي استمرت في الإنقاذ طيلة اليوم الثاني, وكلما عثر على جثة أحد الضحايا إلا وسارعت سيارات الإسعاف لنقله على جناح السرعة إلى أقرب المستشفيات بالمنطقة، أو لوضعه بمستودع الأموات إذا كان قد فارق الحياة إلى حين استدعاء أهله وذويه للتعرف على جثته بعد الإدلاء بالوثائق المثبتة لذلك، وقد اغتنمت فرصة هذا اليوم لزيارة مستودع الأموات للتعرف على جثة رفيقتها مباركة التي لم تعمل بنصيحتها وانساقت مع المغامرين الذين شجعوا ولد مسعودة على العبور الذي تسبب في الحادثة المفجعة، وخطر في بالها أن تعود لمسكن مباركة "العشابة" لتحضر بطاقة تعريفها، وتعمل على نقلها إلى المدينة للقيام بإجراءات الدفن، وتتفقد الحفيد الذي أوصتها برعايته والتكفل به. وفي المساء لما عاد الحفيد من المدرسة وجد أمينة "الخبازة" في انتظاره بباب منزل جدته فأخبرته بالفاجعة المؤلمة وأن جدته فارقت الحياة في الحافلة التي انقلبت بوادي كريفلة، فتسمر في مكانه من هول ما سمع وأجهش بالبكاء بصوت مرتفع وفكر في الحالة التي سيكون عليها حاله عند الغياب الأبدي لجدته التي رعته بحنانها بعد وفاة والديه لكنها طمأنته على مستقبله وأسرت له أن جدته قبل أن تغامر بعبور القنطرة في وادي كريفلة، قد أوصتها بالتكفل به ورعايته، والسهر على مصالحه. ثم أخذته من يده ودخلت منزل جارتها مباركة التي لم تقتنع أنها توفيت، وتذكرت صوتها المبحوح وهي توصيها خيرا بحفيدها، الذي كانت تدعوه ولدي.

لقد ازدادت هموم أمينة بوفاة رفيقتها، حيث قامت بحمل رفاتها إلى مثواها الأخير, رفقة معارفها وأصدقائها، وتلقت التعازي والمواساة من سكان الحي، الذين أكبروا فيها روح التضحية والتفاني من أجل فعل الخير والحث على فعله، وإشاعة المحبة والتفاني بين الأهالي والسكان والمعارف وسائر الناس. كما كبر همها وزادت متاعبها، بعدما أصبحت كافلة لسعيد حفيد رفيقتها، الذي نقلته إلى بيتها حتى يكون قريبا منها، وتطمئن على سيره الدراسي ومستقبله الغامض الذي يبدو مظلما خصوصا مع تقدمها في السن الذي يقارب سن رفيقتها المرحومة مباركة "العشابة" لقد فكرت أمينة في مصير أبناء وأرامل الضحايا الذين ذهبوا ضحية مغامرة سائق طائش، غامر بهم وبمستقبل عائلاتهم، كما تبخرت آمالهم وذهبت أدراج الرياح، لكنها استنصرت الله ورجعت إلى نفسها، وتذكرت قوله تعالى "قل لن يصيبنا إلا ما كتب لنا" وأن ما وقع قضاء وقدر لا يمكن التحكم فيها ولا تجنبه.

حمدت أمينة "الخبازة" الله الذي أمد في عمرها ومتعها بالصحة والعافية ولم تفرط في وصية صديقتها مباركة في شأن كفالة حفيدها سعيد، الذي أوصتها به خيرا وتابع دراسته الابتدائية والثانوية. وكان خير أنيس لحفيد أمينة "الخبازة"، حيث كانا يراجعان دروسهما يوميا إلى ساعة متأخرة من الليل، إلى أن حصلا على شهادة الباكالوريا، فقبل سعيد في إحدى مدارس المهندسين أما حفيد أمينة فقد قبل في كلية الطب وتلك كانت أمنيتها الغالية. وبعد إتمام

دراستهما الجامعية تخرج سعيد مهندسا معماريا، وحفيد أمينة طبيبا عاما، وحصل على منحة لإعداد الدكتوراة بالخارج. وقد كانت هذه هي أمنية جدته مباركة "العشابة"، التي لو بقيت لحقق آمالها ولفرحت بتخرج حفيدها وسفره إلى الخارج. وكل ذلك تحقق في غيبتها بفضل مجهودات أمينة "الخبازة" التي سيجازيها الله خير الجزاء على صنيعها لتحقيق أمنية صديقتها ورفيقة دربها. أما آمال باقي الركاب، خصوصا منهم الذين قضوا غرقا فقد تبخرت وذهبت أدراج الرياح. فمنهم من ترك أرملة وأطفالا صغارا، ومنهم من كان حديث التخرج والتحق بوظيفة في تلك المنطقة.

خامسا: التكفل وتنفيذ الوصية

وقد اغتنمت فرصة هذا اليوم لزيارة مستودع الأموات للتعرف على جثة رفيقتها مباركة التي لم تعمل بنصيحتها وانساقت مع المغامرين الذين شجعوا ولد مسعودة على العبور الذي تسبب في الحادثة المفجعة، وخطر في بالها أن تعود لمسكن مباركة العشابة لتحضر بطاقة تعريفها، وتعمل على نقلها إلى المدينة للقيام بإجراءات الدفن، وتتفقد الحفيد الذي أوصتها برعايته والتكفل به، وفي المساء لما عاد الحفيد من المدرسة وجد مينة الخبازة في انتظاره بباب منزل جدته فأخبرته بالفاجعة المؤلمة وأن جدته فارقت الحياة في الحافلة التي انقلبت بوادي كريفلة، فتسمر في مكانه من هول ما سمع وأجهش بالبكاء بصوت مرتفع، وفكر في الحالة التي سيكون عليها حاله عند الغياب الأبدي لجدته التي رعته بحنانها بعد وفاة والديه، وطمأنته على مستقبله وأسرت له أن جدته قبل أن تغامر في عبور القنطرة في وادي كريفلة، قد أوصتها بالتكفل به ورعايته، والسهر على مصالحه، ثم أخذته من يده ودخلت منزل جارتها مباركة التي لم تقتنع أنها توفيت، وتذكرت صوتها المبحوح وهي توصيها خيرا بحفيدها، الذي كانت تدعوه ولدي.

لقد ازدادت هموم أمينة بوفاة رفيقتها، حيث قامت بحمل رفاتها إلى مثواها الأخير، رفقة معارفها وأصدقائها، وتلقت التعازي والمواساة من سكان الحي، الذين أكبروا فيها روح التضحية والتفاني من أجل فعل الخير والحث على فعله، وإشاعة المحبة والتفاني بين الأهالي والسكان والمعارف

وسائر الناس، كما كبر همها وزادت متاعبها، بعدما أصبحت كافلة لسعيد حفيد رفيقتها، الذي نقلته إلى بيتها حتى يكون قريبا منها، وتطمئن على سيره الدراسي ومستقبله الغامض الذي يبدو مظلما خصوصا مع تقدمها في السن الذي يقارب سن رفيقتها المرحومة مباركة "العشابة" لقد فكرت أمينة في مصير أبناء وأرامل الضحايا الذين ذهبوا ضحية مغامرة سائق طائش، غامر بهم وبمستقبل عائلاتهم، كما تبخرت آمالهم وذهبت أدراج الرياح، لكنها استنصرت الله ورجعت إلى نفسها، وتذكرت قوله تعالى " قل لن يصيبنا إلا ما كتب لنا " وأن ما وقع قضاء وقدر لا يمكن التحكم فيه ولا تجنبه.

حمدت أمينة "الخبازة" الله الذي أمد في عمرها ومتعها بالصحة والعافية، ولم تفرط في وصية صديقتها مباركة في شأن كفالة حفيدها سعيد، الذي أوصتها به خيرا وتابع دراسته الابتدائية والثانوية، وقبل في إحدى مدارس المهندسين إلى أن تخرج منها كمهندس معماري، وحصل على منحة لإعداد الدكتوراه بالخارج، وقد كانت هذه هي أمنية جدته مباركة "العشابة"، التي لو بقيت حيث لحقق آمالها، ولفرحت بتخرج حفيدها وسفره إلى الخارج، وكل ذلك تحقق في غيبتها بفضل مجهودات أمينة "الخبازة" التي سيجازيها الله خير الجزاء على صنيعها لتحقيق أمنية صديقتها ورفيقة دربها أما آمال باقي الركاب، خصوصا منهم الذين قضوا غرقا فقد تبخرت وذهبت أدراج الرياح فمنهم من ترك أرملة وأطفالا صغارا، ومنهم من كان حديث التخرج والتحق بوظيفة في تلك المنطقة.

خـاتـمــة

سفر بلا عودة، عبارة عن حادثة سير وقعت في منطقة بين الرباط و وادي زم ذهب ضحيتها أكثر من عشرين قتيلا وعدد من المفقودين، بطلتها أمينة "الخبازة" وجارتها مباركة "العشابة" التي ترافقها أسبوعيا إلى السوق.

تعرضت الحافلة إلى حادثة سير أليمة بعدما سقطت في نهر كريفلة، وفي الطريق تدور أحاديث بين المسافرين ركاب الحافلة، كالجيلالي العطار وحمادي الخضار والسي محمد الموظف والفقيه السي أحمد والمعلم رحو الأوريبلي والفلاح المحراثي و احماد الصحراوي وغيرهم، من الذين دارت بينهم أحاديث ودية تناولت مواضيع متنوعة عائلية ومهنية. كما شملت وصفا حيا لغرق الحافلة في الوادي الهائج نهر كريفلة واستغاثة الركاب وموت بعضهم اختناقا نتيجة المياه المتسربة للحافلة. وبعض المسافرين كسروا النافذة الخلفية وصعدوا وفق الحافلة وبدؤوا يستغيثون إلى أن حضر بعض السكان الذين ساهموا في الإنقاذ، صحبة كثير من الفرق الإنقاذية التي حضرت إلى عين المكان، بما فيها الطائرات الحوامة التي ساهمت بدور فعال في إنقاذ الذين كانوا فوق الحافلة وبواسطة الحبال التي ربطت في جانبها وأمسك بها المنقذون والمسعفون الذين بذلوا مجهودات جبارة ونقلوا الضحايا إلى مراكز الإسعاف أو

مستودع الأموات، إلى أن حضر أهاليهم وحملوهم إلى مثواهم الأخير بعدما تركوا عددا من الأرامل والأيتام.

المهم أن أمينة "الخبازة" أوفت بوعدها، وقامت بحضانة حفيد جارتها ورفيقتها مباركة "العشابة"، إلى أن أتم دراسته الجامعية وتخرج كمهندس معماري وحصل على منحة لإتمام تعليمه العالي صحبة حفيد أمينة، الذي تخرج كطبيب في الطب العام. وبذلك حققت أمينة أمنيتها وأمنية رفيقتها كما خابت آمال كل المسافرين الذين فقدوا حياتهم وتركوا أطفالا وأرامل مشردين، نتيجة انقلاب الحافلة و غرق بعض ركابها في سفر بلا عودة.

بأو رليون – فرنسا - يونيو 2013

محتويات الجزء الأول
سفر بدون عودة

مقدمة:

1- الاستعداد للرحيل.
2- حوارات المسافرين الودية.
3- قرار العبور والغرق.
4- إنقاذ بعض المسافرين.
5- التكفل وتنفيذ الوصية.
- خاتمة.

الشخصيات من ركاب الحافلة :

1- أمينة الخبازة الشخصية الرئيسية.
2- مباركة العشابة رفيقة أمينة.
3- ولد مسعودة « السائق".
4- ولد منانة مساعد السائق.
5- الجيلالي العطار راكب الحافلة.
6- حمادي الخضار رفيق الجيلالي.
7- السيد محمد الموظف راكب الحافلة .
8- السيد أحمد فقيه الدوار رفيق السي محمد.

9- عبد الرحمان السرغيني راكب الحافلة .
10-احماد الصحراوي راكب الحافلة .
11-حفيد مباركة العشابة.
12-حفيد أمينة الخبازة.
13-كبور المحراتي.
14-رحو الاوريبلي.
15- جندي من قدماء المحاربين بفرنسا
16- امرأة من ركاب الحافلة
17-الشيخ من ركاب الحافلة

الجزء الثاني

طريق الأشواك و الأشواق

حكايات وتأملات من واقع النضال

أولا : لقاء بلا موعد

في ليلة من ليالي الصيف الحارة بمدينة مراكش المعروفة بحرارتها المفرطة و مائها البارد ونخيلها غير المثمر، رُغم المحاولات اليائسة من طرف المهتمين بالفلاحة هناك، فقد جمعت إحدى المناسبات ثلة من الأصدقاء بعدما فرقت بينهم الأقدار مدة طويلة، دامت لأكثر من عقدين من الزمن، مرت كلمح البصر. تذكر هؤلاء الأصدقاء ذكرياتهم التي قضوها في طريق ملئ بالأشواك والأشواق في آن واحد، و قرروا أن يحكي كل واحد ما خبره من تجارب وما مرت عليه من محن، و ما تعرض له من مشاكل أثناء تأديته لواجباته النقابية، رغم ما يكتنفها من أشواك وأشواق.

وهكذا تكلم السيد محمد المسمى بوطربوش الذي كان يضع على رأسه طربوشا من النوع التونسي المعروف لَدَى المغاربة، وهذا هو الاسم الذي كان معروفا به لدى كل من يعرفه و قد اشتهر السيد بوطربوش بصلابته و مواقفه النبيلة و التي لم يتزحزح عنها، رغم الترغيب والرهيب، لثنيه عن مواقفه و شراء ضميره و وفائه لمبادئه التي تربى عليها في صفوف نقابة الاتحاد المغربي للشغل. و بهذه المناسبة السعيدة التي جمعته بأصدقائه، اقترح عليهم أن يبوحوا بما في صدورهم، و يحكي كل واحد منهم جزءا من مسيرته النضالية، و ما بذله من جهد لفائدة الطبقة العاملة،

التي كثيرا ما تتعرض لممارسات لا إنسانية، و مهينة للشرف في بعض الأحيان و للحقوق التي ضمنها الدستور والمواثيق الدولية و قانون الشغل المغربي. تكلم السيد بوطربوش و حكى لرفاقه قائلا: "لا أخفي عليكم أيها الرفاق أن انخراطي في النقابة كان بمحض الصدفة، وعمري لا يتعدى أربعا وعشرين سنة، ذلك أني كنت جالسا في إحدى مقاهي المدينة، إذ جاءني أحد الأصدقاء و طلب مرافقته إلى مقر الحزب، لأن هناك أحد ينتظرني، و لم يقبل أن يذكر لي اسمه. و عند ولوج المكتب وجدت المسؤول الحزبي الذي طلب مقابلتي يتوسط جموع الحاضرين، فسلمت عليه، وجلست في ركن من أركان القاعة، إلا أنه ناداني و فسح لي مقعدا بجانبه، و بعد أن أنهى مداخلته صحبني إلى غرفة جانبية، و أخبرني أن الإخوان رشحوني لتأسيس فرع للنقابة بمدينتي، ومستقبلا إحياء الاتحاد المحلي لمجموع النقابات التي بقيت جامدة منذ مدة طويلة. فترددت في أول الأمر لكنه شجعني قائلا: "إن أعضاء مكتب الحزب رشحوك لهذه المهمة لأنهم يعرفونك أهلا لها، نظرا لما تتمتع به من مزايا لا تتوفر في غيرك من الرفاق. لذا ما عليك إلا أن تراجع أمورك وتستعد لإنجاز المطلوب منك، هذا وسأكون معك لأرشدك لما فيه خير هذا البلد. فما كان مني إلا أن شرعت في تصفح الوثائق التي زودني بها، و شرعت في الاتصال بأعضاء المكاتب النقابية التي جمدت نشاطها، و كان اتصالي بالكاتب العام للاتحاد المحلي السابق، الذي لم يتردد في فتح المقر. و حضرنا أول اجتماع لنا ضم جميع المناضلين السابقين، وانتخبنا لجنة تحضيرية للسهر على

إحياء الفروع النقابية وتهيئ جمع عام لانتخاب الاتحاد المحلي. وقد كونا لجنة تحضيرية وأحيينا كثيرا من النقابات وقدمنا وثائقها للجهات المختصة، كما انتخبنا مكتبا محليا." و كل ذلك في ظرف وجيز لم يتعد نصف سنة، كل ذلك بمساعدة من المركزية النقابية بالبيضاء. و هكذا أحيينا الاتحاد المحلي و نفضنا الغبار عن الوثائق التي كانت موجودة فيه، بعدما أهملت لسنوات عديدة أما سبب إغلاق الاتحاد المحلي، فأسبابه معروفة. منها المضايقات والاعتقالات التي طالت المناضلين والمسيرين النقابيين المحليين والوطنيين. كانت المبادرة التي قدناها ذات مردودية حيث زودنا المكاتب النقابية بطاقات شابة ذات طموح عال ورغبة وتفان في العمل. و التضحية من أجل المصلحة العامة. ونكران الذات و التفاني في العمل المفيد الجاد.

ثانيا : انتفاضة عمال منجم

هذا ما ذكره السيد "بوطربوش" عن إحياء النقابات، و تأسيس البعض الآخر كنقابة عمال أحد المنجم،الذي يقع على أحد ر وافد نهر سبو، وهو أهم منجم بالإقليم يستخرج منه مادة "لفليورين" تدخل في عدة صناعات، و الذي حصلت على امتيازه الشركة "أومنيوم نور افريكان" ONA التي تستغل عدة مناجم بالجنوب المغربي. والمادة المستخرجة تعد من المعادن الثمينة، والمطلوبة دوليا، حيث سارعت الشركة المستغلة للمنجم لجلب عمال مؤهلين للإسراع

في الإنتاج، منهم عمال من ب "وآزار وإمطير"، كما سجلت بعض العمال الموسميين من المنطقة، الذين طال انتظارهم من أجل تسوية وضعيتهم الإدارية، وبالخصوص تمتيعهم بالحقوق التي يتمتع بها عمال المناجم، وبصفة خاصة ظهير 007 المنظم لوضعية عمال المناجم، إلا أن الإدارة لم تستجب لذالك، فقرروا تنظيم عصيان مدني للدفاع عن مطالبهم وذلك قبل أن ينتظموا في نقابة تؤطرهم. وتختار من يتكلم باسمهم. إلا أنهم اختاروا الطريق الصعب، وذلك بأن صعدوا إلى الجبل المكسو بالغابة، ونظموا هجومات على مركز الشركة ليلا، وأرهبوا ا لعمال والأطر التي كانت أغلبيتها أجنبية، (إسبان وفرنسيين)، من مهندسين وتقنيين وأطر في الإدارة. فاستغاث مسيرو الشركة بالسلطات المحلية من قيادة ودائرة وعمالة، لكن تدخل هؤلاء لم يأت بنتيجة تذكر، حيث لم يلقوا القبض على أي واحد من العمال، لأنهم من أهالي المنطقة ويعرفون مسالكها جيدا. وقد تعاون معهم السكان، الذين كانوا يزودونهم بالمعلومات والزاد سرا وخصوصا في جنح الظلام، حيث كانوا لا يخرجون إلا ليلا لشن هجماتهم المعهودة، وقد استمرت تهجماتهم لمدة أسبوع، إلى أن تدخل سيد من سادة المنطقة. المنحدر من جبال الأطلس الذي استعمل حيلة تقليدية معروفة عند سكان المناطق الجبلية، وذلك بعد أن إذن له رؤساؤه، حيث نصب خيمة وسط الغابة، وأحضر عدة ذبائح مع طباخة واحدة دون سواها،

وأخذ في إرسال من يتوسط بينه وبين العمال المنتفضين حيث انطلت الحيلة على بعضهم، وتناولوا العشاء بالكسكس والشواء، وطلب من الحاضرين إقناع الباقين، الحضور في الليلة المقبلة لتناول العشاء مع السيد القائد. وأكد لهم أنه لن يمسهم أذى ما دام هو بجانبهم، لكن هذه الحيلة فطن لها بعضهم، ولم ينساقوا وراء هذه الحيلة الماكرة للسيد القائد الذي أقسم أنه لن يمسهم مكروه، وأن الشركة ستلبي طلباتهم، وقدم لهم الأمان وتعاهدوا على النزول في يوم الغد لاستئناف عملهم إلا شخصا واحدا من قبيلة مجاورة، وهو شاب طويل القامة مفتول العضلات، له بنية قوية، تنم عن شجاعة ونباهة لم تتوفر لذى رفاقه الذين قادهم في هذه الانتفاضة، وقد حذرهم من حيلة السيد القائد، التي لا تهدف إلا للإيقاع بهم وزجهم في السجون. و حكى لهم قصة "إنسي" "القنفذ" الرجل الثائر الذي أوقعه أحد القواد في حبائله حيث أرسل من قدم له الأمان وطمأنه على حياته، كما أقنعه أن القائد سيزوجه إحدى بناته وسيغدق عليه الأموال وسيمنحه مكافأة سنية لأنه معجب أيما إعجاب بشجاعته النادرة، فوثق القنفذ وأعطى موافقته على ما قدمت له من عروض، وضرب لهم موعدا للحضور لذى القائد الذي أقام حفلا بمناسبة زواج ابنته بالقنفذ، الذي وثق في القائد. لكنه ما أن حضر وسلم على صهره المزعوم، حتى وضع القائد يده على حلقه، وهي إشارة منه خنق القنفذ والتخلص منه. وهكذا تخلص القائد من غريمه بالحيلة

دون استعمال العنف، وهذا ما يود السيد أن يوقعكم فيه، فكونوا على حذر وابتعدوا من طريقه حتى لا تصبحوا ضحية للغدر. لكنهم لم يسمعوا نصيحته، ونزلوا في الموعد الذي ضربه لهم، مؤكدا أن طلباتهم مستجابة، لكن المفاجأة كانت أعظم، إذ كلما دخل أحدهم إلا واقتيد مباشرة إلى شاحنة للقوات المساعدة كانت مختبئة في المخازن التابعة للشركة، ولما اكتمل العدد، إلا الرأس المدبرة، الذي غادر المنطقة إلى جهة مجهولة، وتبين فيما بعد أنه هاجر إلى إحدى الدول الأوروبية، حيث استقر هناك، ولم يعد إلى البلد مرة ثانية. وعلم أصدقاؤه فيما بعد أنه تزوج وحصل على الجنسية، أما العمال فقد اقتيدوا إلى الدرك الملكي حيث حررت لهم محاضر وأحيلوا على النيابة العامة، التي تابعتهم بمقتضيات القانون الجنائي. وهكذا انتهت هذه الحركة العشوائية، أظهرت أن التنظيم النقابي كان عليه أن يؤطر هؤلاء العمال، حتى لا يرتكبوا أخطاء فادحة تحول دون تحقيق مطالبهم، وعذر الاتحاد المحلي مقبول، لأن النشاط النقابي كان مجمدا كما شرحنا ذلك فيما سبق. وبعد الواقعة التي أتينا على ذكرها تحرك أعضاء الاتحاد المحلي وانتقلوا لزيارة المنجم لتأسيس نقابة هناك انضم لها كل العمال بدون استثناء، فكانت أهم نقابة في الاتحاد المحلي حيث كان عدد عمالها يتعدى 120 عاملا.

ثالثا : تكوين نقابة عمال منجم

بعدما حوكم العمال الذين أوقع بهم السيد القائد، طلب الاتحاد المحلي الناشئ عقد اجتماع عام للعمال بعين المكان، وقد ترأست هذا الاجتماع وشرحت للحاضرين الهدف من هذا اللقاء، وأعطيتهم نظرة حول تاريخ تأسيس النقابة بالمغرب الذي تم يوم 20 مارس سنة 1955 من طرف ثلة من المناضلين بمنزل بدرب السلطان بحي "بوشنتوف"، وبالضبط بالزنقة رقم 19 بالدار البيضاء. هذا وإن النشاط النقابي لم يكن منعدما، قبل هذا التاريخ بل كانت هناك نقابة "س ج ت و"، هي تابعة للنظام الاستعماري، وهناك النقابة الحرة المستقلة التي أسستها جماعة من المناضلين، ثم تدخل أحد أعضاء الإتحاد المحلي المرافقين لي وقال: "إن النقابة هي مجموعة من العمال يعملون لدى مشغل واحد، أو مجموعة من المشغلين يعملون عملا واحدا أو أعمال يكمل بعضها البعض، يتفقون فيما بينهم للدفاع عن حقوقهم بالوسائل المشروعة التي يكون آخرها الإضراب، المنظم طبقا للقوانين الجاري به العمل"، و تناولت الكلمة مرة ثانية وشرحت للحاضرين الهرم النقابي الذي يتمثل في المؤتمر الوطني الذي ينعقد كل أربع سنوات، وهو الذي ينتخب المجلس الوطني الذي يضم كل الكتاب العامين للجامعات الوطنية كالتعليم والصحة والبريد

والفلاحة والمعادن وغيرها من القطاعات الأخرى، ثم يلي ذلك في الترتيب، المكتب المركزي الذي يتكون من عناصر لا يتجاوز عددها 16 مرشحا يليه في الترتيب الهرمي الأمانة العامة، وهي أعلى قمة الهرم التي يرأسها الأمين العام، و تسهر على السياسة العامة للاتحاد وتنظم العلاقات الخارجية. وبصفة عامة، كل ما يهم سير الاتحاد. وتنظم التكوين النقابي محليا، وترشح المشاركين للندوات والدورات التكوينية في الخارج. وبعد انتهاء هذا العرض والإجابة على أسئلة الحاضرين واستفساراتهم تم الشروع في انتخاب المكتب المسير للنقابة الجديدة، الذي تكون سبعة أفراد تم انتخابهم بالطريقة الديموقراطية من العمال الذين ترشحوا لتحمل مسؤولية التسيير. بحيث تقدم للترشيح أكثر من 16 شخصا تم قدم الملف كاملا للجهات المختصة وعلى بركة الله سيشرع هذا المكتب في أداء مهمته لما فيه خير العمال الذين عانوا من جراء غياب تنظيم نقابي مؤهل لقيادة العمل النقابي الرصين.

رابعا : مفاوضات في قعر منجم

بعدما أتم السيد "بوطربوش" مداخلته التي استمرت وقتا طويلا، انبرى له السيد الدلو الذي أخذ الكلمة وذكر رفاقه ببعض الأشواك التي أدمت قدميه أثناء مسيرته النقابية، ورغم ذلك فإنه مشتاق إليها رغم أشواكها، ومنها إضراب عمال أحد المناجم بالشرق المغربي و لا حاجة لنا لذكر اسمه، ما دام ليس المهم هو المكان وإنما العمل الذي أنجز فيه، ذالك أن عمال هذا المنجم قدموا مطالبهم للإدارة التي غضت عنها الطرف، و رغم إجراء عدة لقاءات للتفاوض باءت كلها بالفشل. فما كان من العمال إلا أن أعلنوا إضرابا غير محدود مع اعتصام داخل المنجم، بعدما أغلقوا المداخل ولغموها بالدناميت والبارود الذي يستعمل في استخراج المعدن، وقد نودي علي من المركزية النقابية بالتوجه لعين المكان بصفتي من المكلفين بلجنة المعادن. وبعد ليلة كاملة من السفر، على متن القطار وصلت في الصباح الباكر إلى المكان، و اتصلت بإدارة المنجم واتفقنا على استيئناف المفاوضات من جديد فسألت عن العمال وعن المكتب النقابي فأخبروني بأنهم تحت الأرض الملغومة. تفتقت فكرة أحدهم على إجراء المفاوضات في قاع المنجم، من خلال الفوهات التي تزود بها المناجم من أجل التهوية والإغاثة عند الاقتضاء، فأنزل السيد "الدلو" بواسطة الحبال بعدما وضعوه في دلو كبير مع ربط خصره بحبل متين و إنزاله إلى الأسفل، لعرض مقترحات الشركة على العمال

المعتصمين. و بعد أخذ رأيهم في عدد من النقط، يتم تحريك الحبل من الأسفل الأعلى حيث يقابل إدارة الشركة و يعرض عليها ما تم الاتفاق عليه محولا إقناعهم برأي العمال في النقط التي تم الاتفاق عليها وهكذا دواليك وقد استمرت هذه العملية ما يزيد على ثماني ساعات، نزلت خلالها إلى قاع المنجم أكثر من أربعين مرة صعودا ونزولا، إلى أن تم التوصل إلى النتيجة النهائية التي أرضت الجميع. و لقد ضحى العمال بأرواحهم من أجل الدفاع عنها. وقد كانت هذه أغرب مفاوضة قدتها في حياتي. النقابية التي دامت أكثر من عشرين سنة، و أخيرا تم التوقيع على الاتفاق النهائي الذي وقع من طرف الإدارة أولا ثم العمال المتواجدين بالقاع داخل المنجم. و مع فض الإضراب رفع العمال الحواجز وخرجوا إلى السطح بعد اعتصام دام عدة أيام. إلا أنني بعد هذه المفاوضات أصبحت أكنى محمد "الدلو" نسبة إلى الدلو الذي استعملته للنزول إلى قاع المنجم للمفاوضات.

خامسا : معاناة عمال المناجم

من المصاعب التي يعاني منها عمال المناجم يمكن أن نذكر الانهيارات والأمراض الفتاكة كمرض السلكوز، زيادة على حوادث الشغل، التي تنتج غالبا عن انفجار شحنة من الديناميت لم تنفجر من قبل، و ذالك عندما يشرع العامل في إحداث الثقب في حائط المعدن مستعملا مثقابا كبيرا يدعى جامبو JAMBO يعمل بالضغط لعمق مترين أو ثلاثة يحشوها بالمادة المتفجرة، و هذه الثقب تكون غالبا على شكل دائري. و يربط بعضها مع البعض و تكون متقاربة فيما بينها و تلتقي في نقطة المركز بواسطة سلك مشحون بالكهرباء، وعندما يتم شحن كل الثقب بالمادة المتفجرة يبتعد العامل مسافة معينة ثم يضغط على الزر لتنفجر الشحنة، و يسقط المعدن على الأرض، لتقوم آلة نقال بحمله إلى الشريط المتحرك الذي ينقله بدوره إلى مكان تجميع المعدن حيث يتم نقله مرة ثانية إلى المعمل لمعالجته، ثم بعد ذلك إلى الموانئ لتصديره كمادة خام غالبا. و لكن قد تتعطل بعض الشحنات و لا يتم انفجارها. و عندما يشرع عامل آخر أو نفس العامل في العمل في نفس الموقع وأثناء الثقب قد تنفجر كتلة لم يتم انفجارها من قبل، فتكون الكارثة التي قد تؤدي بحياته أو حياة من يتواجد بقربه. و كم من العمال ذهبوا ضحية هذه العملية، التي هي أساس استخراج المعدن. و مع الوفاة أو

الإعاقة تبدأ المعاناة بسبب المساطر القضائية التي تستغرق سنة أو سنتين أو أكثر. كما أن العائلة تكون مضطرة إلى إخلاء المنزل الذي كانت يقطنه، خصوصا إذا كان تابعا للشركة المشغلة، فتدخل العائلة في متاهة التشرد والضياع. بعد مدة ليست بالقصيرة، يحصل ذوو الحقوق على إيراد قد لا يسمن و لا يغني من جوع، خصوصا إذا كانت أجرة الضحية ضعيفة.
و هناك مرض "السلكوز" الذي يؤدي بحياة عدد كبير من العمال و لا شفاء له و يسمى مرض الرئة الإنسدادي و ذلك نتيجة الغبار الناتج عن استنشاق جزئيات "السليس" البلورية الحرة والدقيقة أقل من خمسة "ميكروميتر"، حيث تبقى متحجرة داخل الحويصلات أو الشعب الهوائية في الرئة، وقد يصيب هذا الداء المدخنين و يأتي في المرتبة الثالثة من أسباب الوفاة. و قد بلغ عدد ضحاياه سنة 2004 أكثر من ثلاثة ملايين نسمة، و عدد المصابين 64 مليون نسمة في العالم. وبهذه المناسبة فإني أتذكر أن أحد الرفاق، و كان من خيرة النقابيين أصيب بهذا الداء الذي أودى بحياته و ترك عائلة مكونة من ولد وبنت كانا يتابعان دراستهما في الثانوي. و بما أن هذا العامل تعود أصوله إلى منطقة الأطلس الكبير حيث جلبته الشركة ضمن العمال الذين عملوا في هذا المنجم عند افتتاحه و هو من قدماء عمال منجم "إيميطار". و قد كان رحمه الله نشيطا في التسيير النقابي، و يمتاز بذكاء فطري خارق، و كان ذا لباقة

في الكلام و محبوبا من طرف رفاقه، الذين ساعدوا عائلته إلى أن سويت وضعيهم وحصلوا على التعويض القانوني. و هذا الداء ملازم لعمال المناجم إلا من رحم ربك، و لست مستعدا في هذا اللقاء لأعطيكم الإحصائيات الرسمية التي تصدرها الجهات المعنية. و عند وفاته كان التضامن عاما وشاملا، حيث تم دفنه بمقر رأسه بـ"ميدلت"، و زيادة في التضامن مع عائلته فقد تقدم المكتب النقابي لإدارة الشركة بطلب يرمي إلى تشغيل ابنته في إدارة الشركة، فاستجابت مشكورة "ح ارجداو" و هو اسمها العائلي و قد كان لها مستوى لا بأس به، حيث سدت النقص الحاصل في مداخيل العائلة التي عانت كثيرا من الناحية المادية، و إن تأثرت من الناحية العاطفية والمعنوية. و قد كان السيد: "ارجداو" مثالا للصمود و الإصرار والتحدي، و قد حكم عليه مرة بسجن نافد لمدة 6 أشهر من أجل عمله النقابي. و قد حملت له الزاد أكثر من مرة بسجن لعلو بالرباط، و قد حكى لي عند خروجه من السجن أن المعتقلين السياسيين المتواجدين بنفس السجن طلبوا من الإدارة إلحاق النقابيين المعتقلين بمجموعة المعتقلين السياسيين فاستجابت إدارة السجن للطلب، لأن المعتقلين السياسيين، يتمتعون ببعض الامتيازات الخاصة التي لا يتمتع بها باقي السجناء. و ما مثال "أرجداو" و هو إسم مستعار، إلا واحد من المناضلين النقابيين الذين شقوا طريقهم رغم الأشواك الدامية، التي يتعرض لها

كل من تشتم فيه رائحة "التقدمية"، أو ينتمي إلى نقابة أو حزب لا يعد من الأحزاب الموالية، و هذا ما عاناه بعض المواطنين الذين زج بهم في السجون أو المعتقلات المشهورة ك"تزمامارت" وغيرها، و قد سخر بعض المعتقلين أقلامهم لفضح سنوات الرصاص كما يطلق عليها، الذين تم تعويضهم في إطار الإنصاف و المصالحة فيما بعد.

سادسا : لعوينة

"لعوينة" في لهجتنا المغربية هي تصغير للعين، و تطلق مجازا على صاحب العين الوحدة أي الذي فقد إحدى عينيه لسبب من الأسباب، قد تكون حادثة شغل أو حادثة سير أو غيرها. و ما دمنا نتحدث عن عمال المناجم، فقد تذكرت حادثة شغل عشت مراحلها، و سأحكي لكم تفاصيلها، ذلك أن أحد العمال المنحدر من "تنجداد" وهو شاب في مقتبل العمر، طويل القامة أسمر البشرة أفطس الأنف له بنية قوية، قضى شبابه في قريته و لم يتم تعليمه الابتدائي. سبق له أن اشتغل أولا كصبي حداد، ثم بعد ذلك تقلب في عدة مهن أخرى، منها حفر الآبار والمخفيات إلى أن ألتحق عاملا في أحد المناجم لدى شركة للتعدين، و قد كان مثالا للنقابي المتنور والمحبوب من طرف رفاقه في العمل، حيث طوقوه بأمانة المال بمكتبهم المحلي. و بحق فقد كان مثالا للأمانة والصدق، و في أحد الأيام بينما كان يزاول عمله، إذ انفجرت في وجهه شحنة من الديناميت متخلفة من قديم، أصابته في عينه اليمنى، و لم يستيقظ إلا بعد أن وجد نفسه ممددا على سرير أبيض في أحد المستشفيات، حيث أخبره الطبيب المعالج أنه فقد عينه اليمنى، و أنه سيعوضها

لـه بعـين مـن الزجـاج، و أن مجـال بصـره سـيعوض بـالعين الباقيـة و هـي العـين اليسـرى. و بعـد مـدة ليسـت بالقصـيرة رجـع إلـى مقـر عملـه وتسـلم منصـبه بصـفة رسـمية، و تعـود علـى سـماع إسـمه الجديـد لعوينـة أي ذو العـين الواحـدة، وذلـك تجنبـا لمناداتـه بـالأعور. و بطبيعـة الحـال فقـد تسـلم التعـويض مـن الشـركة المؤمنـة لحـوادث الشـغل بـالمنجم، و رغـم أن هـذه التسـمية جديـدة بالنسـبة لـه فقـد تعـوذ علـى سـماعها وقبـل بهـا إسـما جديـدا لـه، حيـث كـان يسـتجيب لكـل مـن نـاداه بـه مستسـلما لقـدره. هـذا وقـد جـاء فـي الدراسـات أن مـن يتعـرض لحادثـة غالبـا مـا يتعـرض لحادثـة أخـرى، وهـذا مـا وقـع بالفعـل، إذ أن السـيد لعوينـة أصـيب مـرة ثانيـة فـي عينـه اليسـرى هـذه المـرة، و ذلـك بعـد سـنتين مـن الحادثـة الأولـى، إلا أن إصـابته كانـت خفيفـة، و الأمـر المضـحك أن طبيـب الشـغل طمأنـه أن إصـابته كانـت خفيفـة، ثـم وضـع لـه ضـمادة علـى العـين المصـابة، و أمـره بـالرجوع فـي اليـوم المـوالي، وهـو لا يعلـم أن لعوينـة عنـدما وضـع لـه الطبيـب الضـمادة علـى عـين المصـابة قـد فقـد نعمـة النـور، فأجابـه لعوينـة سـيدي إنـي لا أرى إلا الظـلام لأن العـين اليمنـى التـي ظننـت أنهـا سـليمة، فهـي مـن زجـاج، فمـا كـان مـن الطبيـب إلا أن طلـب سـيارة الإسـعاف التـي حملتـه إلـى منزلـه، وبعـد العـلاج نقـص بصـره بنسـبة كبيـرة تعـدت خمسـة وسـبعين فـي المئـة و لكنـه حمـد الله، فقامـت الشـركة بمنحـه عمـلا مناسـبا لوضـعيته، و هكـذا نـرى أن عمـال المنـاجم يتـربص بهـم عَـدوان همـا:

السيليكوز و حوادث الشغل و بعدما أتم السيد الدلو تدخله، جاء دور السيد رحو القصير، الذي أخذ الكلمة، و قال بصفتي كنت مكلفا بلجنة التنسيق لقطاعين هامين هما الفلاحة و المناجم فسأحكي لكم قصة غريبة هي الزوجة الثانية.

سابعا: الزوجة الثانية

ذات صباح من صباحيات شهر مارس ذي الهواء بمدينتي من سبعينات القرن الماضي،و بينما كنت في مقر النقابة، إذا بطارق يطرق الباب وعندما فتحته وجدت والدتي وزوجتي مع ولدي خ وع فرحبت بقدومهما. و بدون مقدمات خاطبتني والدتي قائلة بصوت عال، و هذا ليس من عادتها "يا ولدي تكفيك زوجة واحدة و لماذا هذه الزوجة الثانية"، فأجبتها جواب الواثق في نفسه: "أقسم لك بالله العلي العظيم أني لا أتوفر على زوجة ثانية"، و أخبرتني أنها سألت والدي عن شروط التعدد فأخبرها أنه يجب العدل بين الزوجات، لقوله تعالى: "فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ..." الخ وأنت يا ولدي غير عادل، و قد زاد والدك آية قرآنية أخرى لا أتذكر إلا معناها فقط، و مفادها أن الإنسان لا يستطيع أن يعدل بين النساء ولو حرص على ذلك، فكررت قسمي أني ليست لي إلا زوجة واحدة، و هي التي بجانبك الآن، و لكن أخبريني من أتاك بهذا الخبر الكاذب.

إنه ليس كذبة بل خبر يقين لاحظته بنفسي، و أنت تعيش معي في نفس المنزل منذ زواجك إلى الآن.

هذا وقد ازدادت حيرتي ولم استطع أن أهتدي إلى الحقيقة رغم ما بذلته من جهد في التفكير.

فتبادر إلى ذهني سؤال وجيه، بالله عليك أخبريني أين هذه

الزوجة و أين تقيم و من هي عائلتها الخ. وهنا صارحتني والدتي قائلة إن هذه الزوجة تقيم عندها النهار، و غالبا ما تسافر عندها أو معها بالشهر و الشهرين.

عند ذلك اختلط لدي الحساب و لم أستطع التركيز أكثر فيما سأقوله أو أدافع به عن نفسي، و أنا في موضع المتهم.

"أخبريني كيف تتصورين أني متزوج بامرأة ثانية وأنت تعرفين وضعيتي المالية وأجرتي الشهرية و وقتي الموزع بين زوجتي و عملي الذي هو النقابة".

وهنا ابتسمت والدتي قائلة.

"هذا ما كنت أود أن أصل إليه، إن الزوجة الثانية هي هذه النقابة التي تقيم عندها، وتسافر معها في داخل المغرب وخارجه، و لا تفارقها ليلا ولا نهارا".

لقد تذكرت أنه كان لدي تدريب لمدة شهر بإحدى الدول عربية

إن هذا السفر و الذي سبقه كان لدولة عربية، و قد دام 45 يوما و هو يدخل في إطار عملي، لأني كما تعلمين منقطع للعمل النقابي، رغم أني أتقاضى أجري من الإدارة التي وظفتني لأول مرة. هل تعتبرين يا والدتي النقابة زوجة ثانية.

"إنها كذلك يا ولدي، فالذي يسافر بالشهر والشهرين و يترك أولاده دون رعاية ولا رقابة و لا يعرف مصيرهم و لا يتصل و لو بالتلفون، ألا تعتبر أن له زوجة ثانية، ما رأيك فيما أقول، أجبني من فضلك. و زادت قائلة: إنك يا ولدي هجرت زوجتك، و اتبعت هذه النقابة التي غيرتك عن زوجتك و أهلك و أولادك الذين هم في أشد الحاجة إليك،

فاتق الله في نفسك وأهلك و عد إلى صوابك، و طلق هذه الزوجة الثانية، و كفاك زوجة واحدة".

ثم تابعت حديثها "إن أبناءك في أمس الحاجة أليك، فمن سيراجع معهم دروسهم اليومية فهم في حاجة ماسة ألى من يقوم بشؤونهم اليومية اتق الله في نفسك وفي أهلك وفي أولادك".

"إن والدك رجل مسن ولن يستطيع أن يقوم مقامك في النصح و الإرشاد و المراجعة، لذا فإني أُخيرك بين أمرين: إما هذه النقابة التي هي زوجتك الثانية و التي تقضي معها أغلب أوقاتك إما مسا فرا إلى الخارج أو في جولة خارج الإقليم أو في رئاسة اجتماع إلى منتصف الليل، أما المخاطر التي تتعرض لها فلا يعلم كنهها إلا الله، و قد ذكرت لي إحدى الصديقات أن العمل النقابي محفوف بالمخاطر، فكم من نقابي إختفى و لم يظهر له أثر منذ مدة، و رفيقك في هذا العمل له من يدافع عنه إذا ما تعرض للاعتقال".

لذا أنصحك نصيحة الأم لولدها أن تبتعد عن هذا العمل المحفوف بالمخاطر، فمضاره أكبر من نفعه".

حينذاك تنفست الصعداء و فكرت مليا في الأمر و أجبت بصوت هادئ إجابة الواثق من نفسه قائلا:

"إن النقابة يا والدتي ليست زوجة ثانية، و إن كنت معها فإنها لا تعوض حبي لأولادي وزوجتي، فزوجتي وعملي النقابي سيان عندي فلكل مكانته في قلبي، إن هذا العمل الذي أقوم به هو عمل نبيل يصب في قناة الطبقة العاملة التي هي عماد الاقتصاد الوطني، وان ما أقوم به من أعمال هو لصالح الطبقة العاملة المستضعفة، و إن هؤلاء الناس

الذين أقوم بالدفاع عنهم هم العمال الزراعيون وعمال المناجم، الذين لولا كدهم و سعيهم لما تقدم الاقتصاد الوطني، إن من واجب النقابات توعية العمال و تعريفهم بحقوقهم، و التي منها توعية وتعريفهم بحقوقهم وواجباتهم، و هذا ما نقوم به يوميا لإشاعة المعرفة الحقوقية التي أوكلها المشرع للنقابات.

لذا فلا تظني يا أمي النقابة زوجة ثانية لزوجتي التي تزوجتها عن حب وأنت أدرى بذالك من غيرك. إن زوجتي ليست لها غيرة من عملي النقابي الذي أمارسه رغم ما فيه من أشواك وأشواق، إن شوقي لهذا العمل لشديد و بالغ الأهمية.

إني أفيد، فالفائدة هي المعرفة بالنسبة للعمال، و الإستفادة بالسبة لي معنوية أكثر منها مادية. فبممارسة العمل تعلمت طرق المناقشة و تغلبت على الخجل الذي كان لا يفارقني، حيث أصبحت و الحمد لله أعبر عن رأيي بكل وضوح وصراحة، و أبدي رأيي في القضايا المعروضة للنقاش في الاجتماعات العامة و الخاصة. كما تعلمت كيف أدير النقاش، وأصبحت أدير الاجتماعات، و تعلمت كيف أحرر المطالب النقابية و كيف أقدم الملتمسات وأؤسس الفروع النقابية و أقابل المسؤولين و الوزراء وغيرهم. هذا زيادة على الندوات الوطنية والدولية التي أشارك فيها، فقد حضرت عدة لقاءات و ندوات و مؤتمرات في عدد من البلدان العربية و الغربية والشرقية، و لولا تفرغي لهذا العمل، و أنا الآن أعد شهادة جامعية سأصبح بفضلها محاميا إن شاء الله. و حينذاك سأغادر النقابة. لأن المحامي لا يحق

له أن ينخرط أو يترأس نقابة للعمال، لأنه بصفته تلك يمنع عليه أن ينخرط في أية نقابة غير نقابة المحامين.

هل إقتنعت يا أمي بمزايا النقابة التي تعتبرينها زوجة ثانية، كوني مطمئنة و نامي على جانب الراحة، فإن أي مكروه لن يصيبني إن شاء الله، سأكمل مشواري وأحقق كل ما أتمناه دون إفراط ولا تفريط، فزوجتي و أبنائي في سويداء قلبي لن أفرط فيهم مهما كان الثمن. وعملي في النقابة في الجانب الآخر من قلبي الذي يشمل شقين أيمن و أيسر، وعليه فإني أرجوك أن تساعديني بالدعاء الصالح، و أعدك أنني لن أنسى فضلك و لا فضل زوجتي علي، و إني أكن لكما بالغ التقدير والاحترام، هذا وأعدكم سأقسم قلبي بينكم أنتم الثلاثة أمي وزوجتي ونقابتي، التي لن أفارقها إلا بعد أن أحس أني أديت واجبي الوطني نحوكم جميعا.

ثامنا : علاقة العمل النقابي بالاقتصاد والسياسة

النقابة عمل إنساني وسياسي و اقتصادي واجتماعي وأخلاقي ودِيني وتربوي، فمن الناحية الإنسانية والاجتماعية فهي تنبع من المجتمع العمالي الذي يسعى إلى الرقي بالمجتمع وتحسين وضعيته، ومن الناحية الصحية مثلا، قد يحقق العمال مكاسب اجتماعية هامة منها على تقاعد تكميلي يساهم فيه المشغلون بنسبه عالية، مما يخفف عنهم أعباء الحياة و يزيد من دخلهم عند التقاعد لقضاء الباقي من حياتهم في وضعية مالية مستقرة. فكثير من العمال حصلوا، عند تقاعدهم، على رواتب تقاعدية فاقت بكثير الأجر الذي كانوا يتقاضونه أثناء العمل، و الأمثلة على ذالك متعددة لا حاجة لذكرها. و من الناحية لاجتماعية أيضا هناك جمعيات الشؤون الاجتماعية، التي تعمل على توفير السكن للعمال و تبني مراكز الاصطياف التي يقضي فيها العمال فترات استراحة خلال العطل الصيفية أو الربيعية، و كذا توفير وسائل النقل المدرسي لأبنائهم بالمجان، أو نقلهم إلى مساكنهم إذا كانت تبعد عن أماكن العمل. يمكن أن نقول إن العمل النقابي قد يحقق نوعا من المعجزات، فقد عشت تجارب مع بعض النقابات التي حصل فيها العمال

على مكاسب مهمة، سآتي على ذكر بعضها، منها مثلا: منحة عيد الأضحى ومنحة الدخول المدرسي والبذلة السنوية والكهرباء المنزلي بالمجان وكمية من الصابون شهريا، زيادة على قرعة الحج لعاملين اثنين كل سنة، و بالمناسبة فقد حضرت إجراء قرعة في إحدى السنوات، وكان من ضمن الفائزين عامل رفض الذهاب إلى الحج مجانا، و احتج على الإدارة التي أجرت القرعة قائلا: "من أخبركم أني راغب في الذهاب إلى الحج، و منذ ذلك التاريخ قررت إدارة الشركة أنه لن يشارك في القرعة إلا من رغب في ذالك بواسطة استمارة موقعة من طرف المعني بالأمر.

أما من الناحية السياسية فالنقابي والسياسي يلتقيان في هدف واحد هو الوصول إلى الحكم، إلا أن السياسي يطلق من السياسة والنقابي ينطلق من الاقتصاد ليلتقيا في هدف واحد هو الحكومة، و لتحافظ النقابة على استقلاليتها، يجب أن لا تكون النقابة ذيلا لأي حزب، و هذا معناه أن النقابي لا يكون محزبا يأتمر بأوامر الحزب الذي ينتمي إليه، و العمل النقابي عمل يومي لأن مشاكل العمال مشاكل يومية تتطلب من القائم على العمل النقابي أن يكون مستعدا لمواجهة المشاكل والاجتهاد في حلها، تسمى في النقابة القانون الجماعات الضاغطة، والنقابي ينبغي أن يكون عارفا بجميع الإتجاهات السياسية المحلية و الدولية، و ملما بقضايا وطنه الكبرى. أما من الناحية الاقتصادية" فإن

العمال هم عماد الثروة، و قد يكون هؤلاء العمال إما تقنيين أو مهندسين أو مختـرعين، لأن الفلاحة والصناعة أصبحت تعتمد على التقنية أكثر مما تعتمد على القوة العضلية، و أصبح تصدير الخدمات أي اوف شورين يشغل طبقة من التقنيين والمهندسين والفنيين، مما خفف من البطالة ولو بشكل جزئ، كما أن مراكز النداء ساهمت في تشغيل عدد من الشباب العاطل .

تاسعا: الدين والأخلاق والنقابة

الدين عماد الأمة وركيزة أساسية في النهوض بها، وليقوم العامل بواجباته اليومية ,فإن الدين الإسلامي يحتم عليه أن يكون مخلصا في عمله وأن يتفانى فيه، وأن لا يقوم بما من شأنه أن يضر بمصالح مشغله، أو يلحق أي أذى بوسائل العمل التي وضعت رهن إشارته، لأن ذلك محرم في الملة الإسلامى. و تجبره واجباته الدينية أن يجهر بالحق، وأن لا يتآمر على مشغله وأن لا يكتم الشهادة، إلا أنه من حقه أن يدافع عن مطالبه ويتضامن مع رفاقه عند تقديم المطالب لرب العمل وأن يشارك في الإضراب المشروع بعد استنفاد الوسائل القانونية. والإضراب حق مشروع ودستوري، وذلك بعد رفض الإدارة مبدأ الحوار قصد الوصول إلى الباب المسدود، والإضراب ليس معناه الفوضى ومنع العمال من الإلتحاق بالعمل، لأن ذالك محرم قانونا ويعاقب عليه القانون الجنائي. والإضرابات أنواع منها: ألإضراب الدائري grève tournante والإضراب المبرقع grève perlée والإضراب التماطلي grève de zélé والإضراب الإنذاري grève d'avertissement ولإضراب الفجائي grève surprise والإضراب التضامني grève de solidarité الإضراب مع الاعتصام grève avec occupation . و لكل نوع من هذه الإضرابات التي أتينا على ذكرها شروط لا مجال للبحث فيها، وقبل أن أتم

حديثي عن الإضرابات لابد من تعريف الإضراب الذي هو عبارة عن توقف جماعي عن العمل قصد تدعيم المطالب، ومن واجبات النقابي المحافظة على سير المصالح الحيوية للمؤسسة، كالحراسة والتزود بالماء والكهرباء وسير المستعجلات في المستشفيات واستمرار المداومة وغيرها من المرافق الحيوية، أو الهامة في المؤسسة لأن في توقيفها صرر محقق لا محالة هذا والواجب الديني يحتم على النقابي أن يتحلى بالصدق والأمانة، وأن يكون ضميره حيا، لأن الضمير هو صوت الروح. وهناك مثل صيني يقول لا تعلق ضميرك إلى ظهرك، و قد أوردت هذه الأمثلة لأدلل على أهمية الدين والأخلاق في العمل النقابي. وقد قيل إن الدين والأخلاق صنوان لا يفترقان، فلا دين بدون أخلاق ولا أخلاق يدون دين، و لولا الإيمان بالعقاب ما ارتدع البشر عن فعل الموبقات والمحرمات.

هذا وقد أوردنا هذه الأمثلة لنبين أن العمل النقابي عربة يجرها ثلاثة أحصنة هم: الدين والأخلاق والضمير، و كثير من الناس يتهمون النقابي بالانتهازي ومتحين الفرص، لجني منفعة شخصية على حساب ثقة رفاقه من العمال، و هذه نظرة دونية ليست لصيقة بجميع النقابيين، لأن هناك كثير من النقابيين مخلصين لهم ضمير وأخلاق، لا يجرون رفاقهم لما فيه ضرر ولا منفعة لهم، لأن الدين والأخلاق والضمير الحي تمنعهم من ذلك. إلا أننا لن نكون مثاليين في القول، وعلى النقابي المسؤول أن يعتبر العمل الذي يقدمه واجبا ما دام قد رشح نفسه

لذلك.

وقبل أن يتم السيد القصير مداخلته الطويلة قاطعه السيد بوطربوش قائلا: "أرى أنك قد أطلت علينا وتذكرت الدروس التي كنت تلقيها في الدورات التكوينية والتي تنظمها المركزية النقابية للنقابيين المبتدئين، هل نسيت أننا رفاقك في النضال، وأن لنا من التجربة ما يكفي". هنا توقف السيد القصير عن الكلام وقال لرفاقه: " إني لا أقدم هذه النصائح لكم، بل هي نموذج للعروض التي سبق أن قدمتها في إحدى الدورات التكوينية كما ذكرت، إلا أنني رأيت من واجبي أن أذكرها في هذا المقام السعيد. بعدما أتم السيد القصير تدخله عن.الدين والأخلاق والضمير وعلاقتهما بالعمل النقابي ,انتقل إلى ذكرى بقيت عالقة بذهنه ألا وهي بريم البوشون.

عاشرا : بريم البوشون

ساقتني الأقدار يوما إلى زيارة مدينة مكناس حيث زرت الاتحاد المحلي، وقد طلب مني الكاتب العام ترأس اجتماع إحدى النقابات، مع مساعدتهم في تحرير مطالبهم، و كانت النقابة هي نقابة عمال الخمور شود صولاي أي بنت الكرمة، هذه الشجرة التي تحتل مساحة شاسعة من الأراضي الفلاحية، و قد سمي هذا النوع من الخمور بحرارة الشمس، كما هو الشأن في خمور بولعوان نسبة إلى المنطقة التي تنتجه، و بما أن العمال في حاجة إلى من يساعدهم في تحرير مطالبهم، فقد ترأست الاجتماع وأعطيت نظرة عن الحالة الاقتصادية، و ما تتسم به من غلاء الذي أصبح لا حد له، لأن السلم المتحرك للمعيشة والأجور الذي لم يتحرك منذ صدوره، و من أجله ما جدوى وجود القانون إذا لم يطبق، و بعد المناقشة المستفيضة للوضعية، ومشاركة الحاضرين و تدخلاتهم في الموضوع، تطرقنا إلى المطالب التي شرعنا في تحريرها، و مناقشة كل نقطة على حدة، و إعطائها ما تستحقه من الاهتمام، وتحديد حد أدنى يمكن التفاوض عليه، و مما أثار استغرابي مطلب يرمي إلى منحة نقدية عن كل قارورة تتم تعبئتها في المعمل، و أطلقوا عليها prime de bouchon و لما لاحظ

الحاضرون دهشتي من هذه التسمية، شرحوا لي إنها تشبه منحة القفة المعروفة عند العمال، وهي أهم، منها لأنها مرتبطة بالإنتاج، فكلما ارتفع الإنتاج ارتفعت هذه المنحة، و لنضرب لذلك مثلا إذا قدرنا أن الإنتاج كان 10000 قارورة في الشهر والمنحة هي 20 سم للقارورة تكون النتيجة 10000 في 20 سم تساوي 200000 سم تقسم بالتساوي على جميع العمال، دون استثناء، و هذا من شأنه أن يخفف عنا أعباء المعيشة، و يزيد من دخلنا الشهري بنسبة معينة قد ترتفع إذا ما ارتفع الإنتاج، و كما تعلمون إخواني فإن التوقيت بلعب دورا هاما فعندما نعتزم تقديم المطالب، فإننا نراعي في ذالك الوقت أولا و الطلب ثانيا. وبعد تقديم المطالب ننتظر وقت المفاوضة فإن كانت النتيجة مرضية فذك، وإلا فإننا نهدد بإضراب، وهو كما ذكرت سابقا على عدة أنواع مع مراعاة كل حالة ما يناسبها، وأنتم تعرفون جيدا أن أرباب العمل لا يحتملون أي نوع من الإضراب لأنه يعطل الإنتاج و يسبب خسائر يحاولون تجنبها، إلا أنه وسيلة ضغط مشروعة إذا ما روعيت شروط تطبيقه، وغالبا ما تتدخل السلطات لتقريب وجهه النظر والتسريع بالوصول إلى حلول متوافق عليها ترضي جميع الأطراف.

حادي عشر : حارس يحتل مقر الاتحاد المحلي

طرقنا باب الإتحاد المحلي ب س أ غ بعدما كلفنا مع مجموعة من عمال إحدى المدن، بالعمل على بعث الروح في العمل النقابي هناك، لكن مفاجأتنا كانت شديدة عندما استقبلنا رجل مسن والذي أخبرناه بمهمتنا وما قدمنا من أجله ,وطلبنا منه أن يسمح لنا بالدخول لعقد اجتماع بالمقر حيث ابتسم وقال الحمد لله لقد تذكرتموني أخيرا وبعد أكثر من عشرين سنة من النسيان، دون أجر وكل ما جنيته أني كنت مستقرا في هذا المحل، دون كراء، فقاطعته قائلا: "هل تسمح لنا بالدخول لعقد اجتماع ودراسة الوضعية النقابية بهذه المدينة" إلا أنه أجابنا: "لن تدخلوا المحل إلا إذا أديتم أجرتي عن العشرين سنة الماضية"، فأجبته: "إننا سنتذاكر في كل ذالك عندما نجتمع ونجدد الجهاز الذي سيسير العمل النقابي، بهذه المدينة" فما كان منه إلا أن صعق في وجهنا وأمرنا بالخروج حالا وإلا سيطردنا بالقوة، لأننا هتكنا حرمة المنزل الذي يحميه القانون، فلطفنا معه الكلام واختلينا به حيث حكى لنا أن له ثلاثة أبناء بدون شغل. وبعد ذلك تم ا لاتفاق بيننا على أن نعمل ما في وسعنا لإيجاد حلول لمشاكله، وسلمناه مبلغا من المال، وأعطيناه وعدا بتشغيل أبنائه الثلاثة،

مقابل أن يخلي المكان. ولاحظنا أن هذا الاقتراح لقي استحسانا من طرفه، وأخيرا سمح لنا بالدخول لعقد الاجتماع مستعملين بعض الكراسي المتلاشية، كما اكترينا البعض الآخر من المقاهي المجاورة. وتم انتخاب لجنة للسهر على تسيير الاتحاد المحلي، وضربنا له موعدا بعد شهر للعمل على تشغيل أبنائه وقد ساعدنا في ذلك بعض الإخوان المسيرين للضيعات بالمنطقة الذين تم قبولهم وتسجيلهم في الضمان الاجتماعي لعمال الفلاحة، وهكذا تم حل مشكلة الحارس وتشغيل أبنائه وإخلاء مقر الاتحاد من الحارس القديم، الذي سلم المفاتيح للإخوان الذين تكلفوا بتسيير المكتب الجديد.

ثاني عشر : البركاكا

تتم مراقبة العمل النقابي وتتبع نشاطه بواسطة العيون التي تنشرها داخل الأجهزة النقابية وفي هذا الصدد وفي إطار عملي الذي يرمي إلى إحياء بعض النقابات، وتنشيط بعض الجامعات الوطنية، وكما نعلم فإن الجهات الأمنية بتت عيونها وآذانها داخل النقابات، لتتبع حركة المسيرين النقابيين وتنقلاتهم، ومعرفة ما يروج داخل الاجتماعات المحلية والإقليمية والوطنية وحتى الدولية التي يشارك فيها النقابيون من المغرب. هذا وقد سبق لي أن ترأست اجتماعا بأحد الأقاليم، خلال عطلة نهاية لأسبوع، واتفقنا على عقد الاجتماع المقبل بمدينة خ وهو مقر عملي كمتفرغ نقابي، وفي اليوم الموالي تم استدعائي من طرف مكتب الاستعلامات الإقليمي حيث استقبلني أحد الموظفين وألقى علي بعض الأسئلة محاولا استدراجي للجواب عما راج في اجتماع البارحة وذلك بإلقاء السؤال التالي: "ما هو برنامج عملكم خلال الشهر المقبل؟" فأجبته: إني لست معلما في مدرسة ابتدائية حتى يكون لي استعمال الزمن والمقرر الشهري، الذي اسطر فيه ما سأقوم به من عمل إن العمل النقابي عمل يومي وأحداثه لا يمكن تحديدها مسبقا، لأننا لا نعرف

هل سيستجيب المشغل للمطالب أم لا ؟" و قد لاحظت أن الموظف المسكين كان يخرج في كل مرة بعد الاستئذان، ثم يعود مرة ثانية، إلى أن يئس من الوصول إلى نتيجة، ثم دخل رئيسه وطلب مني الانتقال إلى مكتبه. وهناك استخرج قصاصة ورق مطبوع فيها موعد الاجتماع المقبل ومكانه وساعته، معترفا أن موظفيه لم يستطيعوا أن يصلوا إلى النتيجة التي كان يترجاها، ومنذ حضوري لمكتبهم فقد كنت أعرف ما سيطلبون معرفته، أي التوصل إلى التأكد من المعومات التي توصلوا بها من مخبريهم، وهنا أجبته سيدي إنكم تعرفون عنا كل شيء فلماذا هذه المراقبة ؟ إننا لا نتاجر في الممنوعات ولا نروج لأفكار ملحدة. فأجابني: "إن عيوننا معكم في كل الأحوال، ونعرف ما تقصدون باجتماعاتكم حتى ولو كانت خارج الإقليم"، فأجبته: "سيدي شكرا على مراقبتكم لنا، وحرصكم على تتبع تحركاتنا وسكناتنا".

"لذا، فإني لن أستطيع أن أنفي أو أؤكد لكم ذلك، ستقولون لماذا ؟ سيدي لست مخبرا ولكم من العيون ما يكفي لمعرفة كل صغيرة وكبيرة عنا، و البركاكا موجدون وأنا لست منهم ولن أكون ذلك المبلغ الطيع لأن ضميري وديني وأخلاقي لا تسمح لي بذلك، فمعذرة وشكرا على حسن الاستقبال، و بحكم ممارستي النقابية فقد كنت أصرح في الاجتماعات أن

من يريد أن يبلغ عنا عليه أن يتحرى الصدق وأن يعرف ما سينقل من معلومات، ولمن سينقلها، إننا نقول وباستمرار: "إن المعيشة ارتفعت بشكل مهول فهل هذا صحيح أم لا؟ و أن ارتفاع وغلاء المعيشة هو نقصان من أجرة العامل"، و قد حكى لي أحد الإخوان أنه عندما خرج من اجتماع كان قد عقد في مقر النقابة وجد سيارة مركونة في أحد الشوارع القريبة من مقر النقابة، حيث خرج منها شخصان أدخلاه إلى السيارة عنوة و طرحوا عليه أسئلة من قبيل من ترأس الاجتماع ما هو جدول الأعمال على ماذا تم الاتفاق؟ وهذا أسلوب فج من أساليب الحصول على المعلومات، و كثيرا ما يلتجأ إلى أسلوب آخر، إذ يعمدون إلى جمع الناس بطريقة عشوائية ويطرحون عليهم أسئلة أين كنتم؟ ومن خلال الأجوبة يعرفون من كان في اجتماع حزبي أو نقابي، وهم ينطلقون في الاستفسار إلى أن يصلوا إلى هدفهم، وذالك في حالة ما إذا غاب مخبروهم عن الاجتماع، أو تعذر عليهم الحضور لسبب أو لآخر.

و قد تطورت اليوم أساليب المراقبة عن بعد وأصبح من السهل الحصول على المعلومات بواسطة الأجهزة الإلكترونية والهواتف النقالة والإنصات عن بعد، والمراقبة المستمرة لبعض الهواتف، و أن البركاكا كأشخاص أصبحوا من الأطر العليا و من

بعــض المســيرين للعمــل النقــابي والحزبــي مــن ذوي النيات السيئة وعديمي الضمير.

ثالث عشر : الإضراب

الإضرابات هي إحدى الوسائل التي سنها المشرع للدفاع عن المطالب العمالية أو للدفاع عن الحق النقابي، عندما يرفض بعض المشغلين الاعتراف للعمال بحقهم في التنظيم النقابي. و قد حكى السيد الدلو لرفاقه معاناته مع الإضرابات، و ذكر أنه في إطار مهمته كنقابي بمنطقته، ذلك أن أحد معامل السكر تقدم عماله لإدارتهم ببعض المطالب، و قد ماطلت هذه الإدارة في الاستجابة لتلك المطالب، فقرر المكتب المسير شن إضراب إنذاري لمدة 24 ساعة، و قد كان الوقت مناسبا لإعلان هذا الإضراب، لأن الوقت كان وقت تكرير البنجر السكري، وأن الفلاحين شرعوا في جلب إنتاجهم إلى المعمل، في هذا الوقت الحرج كان الوقت مناسبا للإضراب، إذ أن مسيري المعمل لن يستطيعوا تأجيل العمل لوقت لاحق، فما كان منهم إلا طلبوا عقد اجتماع لدراسة المطالب المقدمة، لأن البنجر الذي وصل إلى معمل لا يستطيع الانتظار، وإذا بقي مدة أطول فإن حلاوته ستقل وأن الاستهلاك من مادة لفيول سيضيع إذا لم يشتغل المعمل بطريقة عادية، كما أن الفلاحين سيلحقهم ضرر محقق لا محالة، فتدخلت الإدارة لتدارك الموقف الذي لا يستحق التسويف، فعقد الاجتماع الذي

سبقه لقاء مع السيد الدلو حيث عرضت بعض المقترحات التي، و من ضمنها إغراءات لم يستحب لها ورفضها رفضا قاطعا، و لما يئسوا من استملته طلبوا منه أن يدلهم على أهم مطلب، فأخبرهم أن أهم مطلب هو السكن، و الذي بادرت الإدارة الاستجابة له، عند المناقشة، وذالك بحضور مفتش الشغل والسلطات المحلية ومندوبي العمال، و كانت المفاوضات ناجحة، و لم تدم أكثر من ثلاث ساعات و حصل العمال بعدها على أرض مجاورة للمعمل والتزمت الشركة بتجهيزها في فترة معقولة وتوزيعها على العمال توزيعا عادلا. و بعد التوقيع على الاتفاق عرضوا على السيد الدلو بقعا أرضية بأسماء مستعارة، لكنه اعتذر بلباقة شاكرا لهم اقتراحهم، و عرضهم الذي لن يستطيع قبوله. هذا و إني قد قدت عدة إضرابات في عدد من المناطق ولم يسبق لي أن قبلت رشوة كيفما كان نوعها، و أزيدكم إخواني أني قد سعيت لتسجيل بعض العمال في الضمان الاجتماعي و ذلك بصفتهم عمالا صناعيين لأنهم يعملون في المراجل chaudières التي تقوم بتسخين المواد لعصرها واستخراج المواد العطرية منها، وقد قبلت الصندوق تسجيلهم بهذه الصفة، ليستفيدوا من التعويضات العائلية كالعمال الصناعيين و في مركز الضمان الاجتماعي بالبيضاء قدم لي

منـدوبهم ظرفـا مفتوحـا بـه ورقـة مـن فئـة 100 درهـم فرفضـت ذلـك رفضـا قاطعـا، ورددت لـه الظـرف بمـا فيـه، وفـي الاجتمـاع الأسـبوعي وقـف منـدوب العمـال وذكـر لهـم مـا وقـع بالضـمان الاجتمـاعي فـي الـدار البيضـاء، ذكـرهم إنـي قـد قلـت لكـم إن السـيد لـن يقبـل مـنكم هـذا التصـرف. لكـنكم أحرجتمـوني معـه، لـذا باسـمكم جميعـا أقـدم الشـكر والتقـدير علـى مـا بذلـه معنـا مـن أجـل التسـجيل فـي الضـمان الاجتمـاعي كعمـال صناعيين.

رابع عشر : النزاع بين العمال والمشغلين

تنظم عمال أحد المعامل في صفوف النقابة للحصول على بطاقة الشغل وتحسين وضعيتهم القانونية ,وكما هي العادة فقد عقد أول اجتماع بمقر النقابة، لانتخاب مكتب مسير، وبعدما تم تسجيل الحاضرين وفتح باب الإشترك، عقد اجتماع ثان بعد أسبوع لوضع لائحة المكتب المسير لذا الإدارة والجهات المختصة، وقد حاولنا جهد الإمكان اختيار المكتب من المقربين للإدارة ومن أصهار المدير وأقرباء أعضاء المجلس الإداري، وحافظنا على مناضلينا داخل المؤسسة حتى لا نفتقد الجميع، وبعد مدة قصيرة تم توقيف المكتب النقابي بأكمله، بمن فيهم الأصهار والمقربون، فعقد اجتماع بمقر النقابة لدراسة الوضعية وما استجد فيها، وتم الاتصال بالسلطات المحلية و مفتش الشغل للبحث عن حلول مناسبة مع حماية الحريات النقابية و إرجاع أعضاء المكتب المطرودين. و لم تقف القضية عند هذا الحد، بل تم تدبير مؤامرة انصبت على شكوى وجهت للنيابة العامة، التي فتحت تحقيقا في الموضوع حول من دبر عملية تعطيل لوسائل العمل وعرقلتها. و بعد التحقيق أحيل أعضاء المكتب على المحكمة، التي قضت بإدانتهم بعقوبات زجرية، وهكذا إنضاف هؤلاء إلى

جيوش العاطلين، الذين تمتلئ بهم الشوارع والمقاهي والحدائق. إن الطرد هو سمة من سمات بعض المشغلين الذين لا يتورعون في الرمي بالعمال إلى البطالة والتشرد والضياع والإهمال، و ذالك رغم الاتفاقيات الدولية التي تحمي العمل النقابي.

خامس عشر : مقعد مجاني في البرلمان

خصص الدستور المغربي مقاعد في البرلمان لتمثيل العمال، لكن نقابتي وهي النقابة الأكثر تمثيلا، قررت عدم الترشيح لهذه الانتخابات، مما جعل المسؤولين يبحثون عن مرشحين، واستدعت عددا من ممثلي العمال والموظفين في اللجان الثنائية، و اقترحت عليهم الترشيح للبرلمان، و هكذا تم استدعاء الأخ ح م ش الذي كان عضوا في اللجان الثنائية للتعليم. و بعد احتجازه لمدة ثلاثة أيام اقترح عليه من أجل الإفراج توقيع استمارة الترشيح لعضوية البرلمان، و حينذاك سيتمتع بالحصانة البرلمانية و يعبر عن آرائه بكل حرية. و بما أن الدستور خصص عشرة مقاعد للعمال فقد طهرت لائحة بالدار البيضاء ترأسها أحد عمال الميناء، لكن الأخ ح م ش ارفض كل ما عرض عليه رفضا قاطعا لأنه ليس انتهازيا، و أن مبادئه تحتم عليه أن يمتثل لقرار نقابته التي قررت مقاطعة الانتخابات البرلمانية، ورغم الوعد والوعيد لم يستطيعوا إجباره على الترشيح فخلوا سبيله بعد الاعتقال التعسفي دون حق ولا قانون. أما رفيقه في النضال السيد محبوب وعضو اللجنة الثنائية للتعليم كذلك، فقد كان في عطلته الصيفية، و أخبر من طرف عائلته التي كان يتواصل معها بأرقام هاتفية من جهات مختلفة للبريد، للسؤال عن حال إخوته ووالده, حيث

أخبر أن هناك مخزني يسال عنه كل يوم ويريد أن يعرف مكانه، لأن رئس الدائرة يطلبه زيادة على أنه يرابط قبالة المنزل من الصباح إلى المساء، و يتردد كل يوم ليكرر نفس السؤال: هل حضر السيد محبوب ؟ و كم سيطول غيابه ؟ و في هذه الأثناء تم الاتصال بالسيد م ح ش الذي تم إطلاق سراحه بعدما يئسوا من إرغامه على الترشيح، حينذاك تيقن السيد محبوب أن طلب حضوره لدى رئس الدائرة وبهذا الإلحاح ربما سيكون من أجل إرغامه على الترشيح كما هو الشأن بالنسبة ل ج م ش، و كذلك كان، فعند رجوع السيد محبوب لمنزله ذهب لمقابلة السيد رئس الدائرة الذي استقبله في الحال و بادره قائلا إنك تعيس الحظ، فقد جاءنا أمر بترشيحك لعضوية البرلمان، و أن النجاح مضمون لأنه ليس هناك لائحة منافسة، فحظك التعس فوت عليك هذه الفرصة التي لا تعوض، فابتسم السيد محبوب ابتسامته المعهودة والتي لا تفارق محياه، فشكر السيد رئس الدائرة على حسن استقباله، و اعتذر له عن غيابه لأنه في رحلة طويلة لمدة خمسة عشر يوما، و أنه لم يخبر بذالك في الوقت المناسب.

سادس عشر : التكوين النقابي

يلعب التكوين النقابي دورا أساسيا في التنمية، لأن النقابي المكون أفضل من غيره، لأن كفاءته تساعده على قيادة العمل النقابي. و الاتحاد المغربي للشغل كان من السباقين لتأسيس مدرسة نقابية كان من المحاضرين فيها السيد: المعطي بوعبيد، وكان مقر هذه المدرسة بجامع ولد الحمراء بالدار البيضاء، حيث تتوفر على جميع المرافق الضرورية كقاعة للمحاضرات و قاعة للأكل و مطبخ مجهز أحسن تجهيز مع مرافق صحية، و حديقة واسعة خضراء، و قد كانت الدورات التكوينية تعقد بصفة دورية أربع مرات في السنة يسهر عليها خيرة المناضلين النقابيين، الذين لا يبخلون على زملائهم بمعلوماتهم الوفيرة في الميدان القانوني وتاريخ العمل النقابي الوطني والدولي.

سابع عشر : نظرة المجتمع للعمل النقابي

العمل النقابي عمل شريف وشاق و مضن، لا يقوم به ولا يتحمل أعباءه إلا من ضحى بنفسه من أجل خير الجميع، وقدم نفسه ووهب حياته لفائدة رفاقه في العمل من أجل الرقي بالمجتمع.

هذا المجتمع المتكون من طبقات وعلى رأسها الطبقة العاملة، و نظرة المجتمع للعمل النقابي متباينة لذا ذكر السيد الدلو أنه في إطار عمله كمنسق لعدة قطاعات بمناطق مختلفة ولنقابات متنوعة، فقد كسب عدة أعداء منهم من كان يحسده لوجه الله ودون سبب وجيه ومعروف، فقد ذكر له أحدهم يوما أنه يكرهه.

فسأله السيد الدلو: لماذا ذلك؟

لأنك تتمتع بذكاء خارق.

فأجاب الدلو: لو كنت ذكيا فعلا كما ذكرت لما كنت مع الأغبياء.

فرد قائلا وأين ستكون.إذن؟

سأكون مع الأذكياء مثلي

وذات مرة خاطبه أحدهم إنك بورجوازي .

فسأله السيد الدلو: كيف توصلت لهذا الاستنتاج؟

أجابه السائل قائلا لأنك اشتريت بقعة لبناء فيلا

فقال السيد الدلو هل تعرف معنى البورجوازية؟

لكنه لم يستطع الجواب.

هنا أسعفه السيد الدلو قائلا إن البورجوازية هي فكر قبل أن تكون شيئا آخر.

أنا بورجوازي فكريا و سألتحق بصفوف البورجوازيين الكبار، و سأملك ما يملكون من مال وذلك بواسطة فكري وعملي وحبي للخير للجميع .

وأضاف السيد الدلو ذاكرا أنه نظم اجتماعا لمسيري النقابات التي كان يشرف عليها، وبدلا من تناول ساندويتش مع مشروب غازي فضل أن يدعوهم للغداء بمنزله، ولما رجعوا إلى مقراتهم اتصل بي أحدهم وأخبرني أن الرفاق الذين تناولوا طعام الغداء بمنزلك وأكرمتهم إكرام الضيوف فإنهم يتحدثون ويتهمونك بالسطو على أموال النقابة، و إلا من أين لك بهذا المال الذي بنيت به الفيلا؟

اجاب الدلو ذلك الفضولي: إن هذا المنزل بنيته بواسطة قرض لازلت أدفع أقساطه لحد الآن وأني لم أكن أعتمد على أجرتي فقط بل كنت أملك قطيعا من البقر يذر علي ضعف أجرتي الشهرية كل ثلاثاء، وهذا من فضل ربي.

وزاد السيد الدلو قائلا في إحدى المرات صرح لي أحدهم وهو صديق إنه لا يستطيع أن يسير معي في الشارع لأني في نظره مراقب من الجهات المعنية، وهذا ما جعل كثيرا من الأصدقاء يتحاشون مرافقتي، في الأماكن العامة، حتى لا يتعرضوا للمضايقات، و قد سألني أحدهم مرة كم تتقاضى عن عملك النقابي شهريا ؟

أجبته: لا شيء.

لم يصدق السائل ذلك ولم يستسغ الجواب رغم أنه عين الحقيقة.

هكذا كان يعيش النقابي النزيه بين نارين: نار المراقبة التي تلاحقه في كل مكان، ونار المجتمع الذي لا يرحم ويحكم على ظواهر الأشياء دون التحقق من المحتوى والهدف من وراء ذالك العمل الشريف والمضني، بحيث لا يقوم به إلا من وهب نفسه وحريته للعمل النقابي الذي رغم أشواكه الكثيرة التي أدمت كثيرا من الأقدام و شردت كثيرا من العائلات وزجت بالبعض منهم في المعتقلات المعروفة والمجهولة، إلا انه رغم كل هذا وذاك رغم أشواكه الدامية، فإن النقابيين يشتاقون إليه ويتفانون فيه ولا يبغون عنه بديلا.

خاتمة

هذه الحكايات التي آثرت أن أسطرها بأسماء مستعارة هي جزء من حياة مناضل نقابي، دامت أكثر من خمسة عشر سنة، تقلب فيها في عدة مسؤوليات من كاتب عام لاتحاد محلي إلى مكلف بالتنظيم في إحدى الجهات، ثم منسق لعدة نقابات، كالخضر والفواكه التي منها معامل تلفيف الحوامض، و كذلك منسق بقطاع المناجم، وعضو بالمكتب الوطني للمركزية النقابية، و ممثل باللجان الثنائية للتعليم، وعضو نشيط في الشبيبة العاملة، حيث شارك في العديد من المخيمات الشاطئية والجبلية منها. وأثناء هذه المسيرة النضالية استطاع أن يوفق بين النضال والدراسة التي اعتبرها نضالا من جملة النضالات التي كان يخوضها يوميا، إلى أن حصل على الإجازة في الحقوق، الشيء الذي أهله للانخراط في سلك المحاماة، بعدما تقاعد تقاعدا نسبيا، وبذلك حقق أمنيته الغالية وهي الدفاع عن الحقوق بعدما كان يدافع عن حقوق العمال فقط، مرتديا لباسه العادي أصبح يدافع وهو مرتديا بذلة المحاماة التي طالما حلم بها منذ صغره. ذلك أنه شاهد يوما محامية يهودية ترتدي البذلة السوداء لتقابل المراقب المدني الفرنسي لتدافع عن أحد

المقاومين الذي اعتقلته السلطات المحلية، وقد ترسب هذا الحلم في ذهنه، وحققه على مرحلتين: الأولى الدفاع عن العمال بصفته نقابي متمرس قاد عدة إضرابات، وشارك في كثير من المفاوضات كللت أغلبيتها بالنجاح، وتحمل مسؤوليات نقابية كبيرة، كما حالفه النجاح في مهنته الجديدة ووجد له مكانا بين صفوف المحامين كما جند معرفته العلمية وخبرته النقابية في الدفاع عن المظلومين وممن ضاعت حقوقهم من العمال وغيرهم.

محتويات الجزء الثاني

طريق الأشواك و الأشواق: حكايات و تأملات نضالية

- لقاء بلا موعد
- انتفاضة عمال منجم الحمام
- تأسيس نقابة منجم الحمام
- مفاوضات في قعر المنجم
- لعـــــــــوينة
- النقابة زوجة ثانية
- أخلاق النقابي
- بريم البوشون
- احتلال المقر
- البركـــــاكا
- الإضرابات
- النزعات الجماعية

❖ مقعد مجاني في البرلمان
❖ التكوين النقابي
❖ نظرة المجتمع للعمل النقابي
❖ خاتمة

ملحق

أبو الوفاء:
المناضل والشاهد والكاتب

للدكتورعبد الكريم برشيد

الأستاذ أبو الوفاء، اسم ليس كباقي الأسماء، فهو الاسم الذي يشير إلى شخص واحد من الناس، ويشير إلى مجموعة كبيرة من المهام ومن المواقع ومن الأدوار الكبيرة والخطيرة في حياته، والتي تعززت اليوم مع هذا الكتاب بدور القصاص وبدور الحكواتي وبدور الروائي وبدور المؤرخ وبدور كاتب السيرة وبدور السيناريست السينمائي أيضا، وفعلا، فإن الكاتب قد أعطانا في هذا الكتاب مشاهد سينمائية رائعة، مشاهد فيها حركية، وفيها تشويق، وفيها غرابة أيضا، خصوصا عند حديثه عن إضرابات و

اعتصامات عمال المناجم، والتي وصل فيها النضال إلى أعلى درجاته، والذي هو درجة التهديد بالانتحار الجماعي.

أبو الوفاء، هذا الاسم راكم خبرة كبيرة في مجالات شتى، ولقد علمته الحياة قبل أن تعلمه المدرسة والجامعة، وهو في هذا الكتاب لا ينطلق من الخيال، ولكن من وقائع حقيقية عاشها، وهو بهذا يؤرخ للعمل النقابي بالمغرب، كما يؤرخ لمرحلة مهمة وخطيرة من تاريخ المغرب الحديث، وهو الشاهد الذي رأى المغرب يتحول عبر عقود طويلة، ولم يكن الشاهد المتفرج على الأحداث فقط، ولكنه كان أحد العاملين والفاعلين فيها، وكان أحد ضحاياها أيضا، وهو الشاهد الذي يحمل تاريخا طويلا وعريضا وعميقا جدا، ويحمل داخله وخلفه سنوات طويلة من النضال الفكري والسياسي والاجتماعي والنقابي والحقوقي، وهو اليوم يسجل مشاهداته و معايشاته ومكابداته في هذا الكتاب الذي أعطاه عنوان (طريق الأشواك والأشواق ـ حكايات مناضلين نقابيين)

إن هذا الكاتب يحكي، ولكن ما يقدمه ليس حكايات من وحي الخيال، ويتوسل في حكيه بلغة الأدباء الجميلة، وذلك حتى لا يسقط في التقريرية الجافة، ولقد وزع فعل الحكي بين أصوات ثلاثة، و أوجد له مناسبة أيضا، و التي هي اجتماع ثلاثة من الرفاق النقابيين في مدينة مراكش (و قرروا أن يحكي كل واحد ما خبره من تجارب و ما مرت عليه من محن، و ما تعرض له من مشاكل أثناء تأديته

لواجباته النقابية).

لقد تعرفت على هذا الكاتب المربي و المناضل أول مرة في بداية السبعينات من القرن الماضي، أي في تلك السنوات لقد التحقت فيها بثانوية موسى بن نصير للتدريس، فوجدته علما من أعلام مدينة الخميسات، و وجدته قطبا من أقطابها، و اسما بارزا من أسمائها، ولقد كان طريقنا في الحياة واحدا، ولقد جمع بيننا عشق الحق والحقيقة، وحب اللغة العربية، وحب الثقافة العربية، ووحد بيننا الرغبة في أن تكون هذه الثقافة في خدمة الإنسان المغربي البسيط، ولقد شكل هذا الكاتب مع محمد بلقاضي ومصطفى أوعشي ومحمد زروال وقاسم شباب طليعة النضال الثقافي بالمدينة، و انضافت إليهم أسماء لكل من إبراهيم سوفان رحمه الله ولحسن حمامة ومحمد السويرتي والذين كانوا كلهم من مدرسة نضالية واحدة، والتي هي مدرسة الدفاع عن القيم المغربية الأصيلة، ومدرسة ربط الفكرة بالعمل، وربط التصور بالإنجاز، ومدرسة ربط القول بالفعل، ولقد ناضلنا جميعا في جمعية (النهضة الثقافية) وكان هدفنا تحقيق نهضة ثقافية حقيقية، وكنا مقتنعين أن التقدم فكرة، وبأن التحرر فكرة، وأن التغيير ينبغي أن يبدأ من درجة الأفكار.

في هذا الكتاب نطل على معاناة جيل كامل، والتي يعطينا الكاتب نموذجا حقيقيا واحدا منها، ونعرف أن العمل الثقافي والنقابي هو ـ فعلا ـ (طريق الأشواك والأشواق) وأن السير فيه لم يكن في يوم من الأيام نزهة متنزهين، ولكنه

كان سيرا على الأشواك وعلى الألغام، ولولا ذلك النضال السياسي والثقافي والنقابي ما وصلنا إلى ما وصلنا إليه اليوم، ولهذا كان ضروريا بالنسبة للشباب المغربي أن يقرأ هذا الكتاب، ليعرف أن طريق النزاهة لا يمكن أن تكون مفروشة بالورود والرياحين.

في هذا الكتاب نطل على (حياة مناضل نقابي، دامت أكثر من خمسة عشر سنة، تقلب فيها في عدة مسؤوليات من كاتب عام لاتحاد محلي إلى مكلف بالتنظيم في إحدى الجهات، ثم منسق لعدة نقابات.. وكذالك منسق بقطاع المناجم، وعضو بالمكتب الوطني للمركزية النقابية، وممثل باللجان الثنائية للتعليم، وعضو نشيط في الشبيبة العاملة، حيث شارك في عدة المخيمات الشاطئية والجبلية منها) هي مهام كثيرة تقلدها، وهي تجارب حياتية كثيرة عاشها، وهي مواجهات وصدامات ومفاوضات ومناورات صادفته في تجربته الوجودية والنقابية، وقد سجلها في هذا الكتاب بصدق وأمانة، فحدثنا عن (مفاوضات في قعر المنجم) والتي كانت عند ملتقى الحياة والموت، كما حدثنا عن النقابة باعتبارها (زوجة ثانية) وحدثنا عن (أخلاق النقابي) وعن (التكوين النقابي) وعن (نظرة المجتمع للعمل النقابي) وعن الخيانة في الجسد النقابي، وعن رشوة النقابيين، وعن علاقة السياسي بالنقابي وعن الإضرابات في العمل النقابي، وهو لا يتحدث عن العمل النقابي إلا باعتباره آلية من بين الآليات الأخرى، والتي اعتمدها المغرب

الحديث من أجل الإنصاف ومن أجل تحقيق العدالة الاجتماعية، ومن إحقاق الحقوق المدنية في المجتمع.

ولعل أجمل وأنبل ما يميز هذا المناضل النقابي هو عصاميته، وهو إصراره على الدراسة والتحصيل العلمي، وأن يزاوج بين الفكر النظري والممارسة الميدانية في الحياة الاجتماعية، وأن يعرف الناس في الكتب، وألا يكتفي بذلك، وأن يسعى من أجل أن يكون قريبا منهم في المعامل والمصانع وفي الحقول وفي المناجم، وأن يجد نفسه ـ رغما عنه ـ يصطدم برجال السلطة، وأن تجعله علاقاته وممارساته يعرف الصادقين في العمل النقابي، وأن يعرف ضعاف النفوس أيضا.

هذا الوجود في الميدان، لم يمنعه من أن يلتحق بالجامعة، لكي يدرس الحقوق نظريا أولا، وذلك بالموازاة على مطلب هذه الحقوق عمليا، وأرى أن هذا النضال العلمي هو الذي أوصله لأن يحصل على الإجازة في الحقوق (الشيء الذي أهله للانخراط في سلك المحاماة، بعدما تقاعد تقاعدا نسبيا من التعليم) وانطلاقا من حسه التضامني، ومن نزعته الإنسانية، فقد كان يرى أن الدفاع عن العامل وحده لا يكفي، ولذلك فقد انتقل إلى درجة أعلى وأسمى، والتي هي درجة الدفاع عن حقوق كل ذوي الحقوق، وهو لا يخفي حبه القديم لمهنة المحاماة، والذي كان حلما قديما صاحبه منذ الطفولة، ويذكر أنه (شاهد يوما محامية يهودية ترتدي البذلة السوداء لتقابل المراقب المدني الفرنسي لتدافع عن أحد المقاومين

الذي اعتقلته السلطات المحلية) ولقد كان لهذا الحدث العابر أثره الكبير والخطير في وعي ذلك الطفل الصغير الذي كان، و كما المدافع عن العمال والفلاحين، فقد سخر صوته للدفاع عن (المظلومين وممن ضاعت حقوقهم من العمال وغيرهم).

هذا هو الكاتب، كما عرفته وعايشته لعقود طويلة، و كما أعيد اليوم اكتشافه من جديد في هذا الكتاب الذي هو قيمة معرفية وأدبية وفكرية حقيقية.

الدار البيضاء

في 29 - سبتمبر 2014

المؤلف

- الأستاذ رحال أبو الوفاء المحامي
- من مواليد أيت أوريبل عمالة إقليم الخميسات
- رجل تعليم سابقا، محام حاليا بهيئة الرباط
- حاصل على الإجازة في الحقوق من جامعية سيدي محمد بن عبد الله فاس
- حاصل على دبلوم الدراسات العليا الجامعية من كلية الحقوق السويسي الرباط
- باحث في سلك الماجيستير بجامعة الاسكندرية بمصر.

له إسهامات و دراسات في المجال القانوني منها:

- الحماية القانونية للفنان في القانون المغربي
- وضعية الخماس في أعراف قبائل زمور

- التأمين أحكام القضاء
- حقوق المؤلف في القانون المغربي
- شذرات روح زكية في رحلة عاطرة سيرة ذاتية
- مراسلات صحفية حول حوادث السير في الجرائد الوطنية و الدولية

الأنشطة الموازية:

- عضو الإتحاد الدولي للمحامين
- عضو في الجمعية الأروبية للمحامين
- عضو في جمعية المحامين الباحثين
- عضو في مكتب جمعية الصداقة المغربية الأدربيدجانية
- عضو بمكتب جمعية رعاية الطفولة و حماية الأسرة